

من وفيات الأعيان
لابن خلكان

أرتق بن أكسب جد الملوك الأرتقية

هو رجل من التركمان تغلب على حلوان والجبل ثم سار إلى الشام مفارقاً لفخر الدولة أبي نصر محمد بن جهير، خائفاً من السلطان محمد بن ملكشاه وذلك في سنة ثمان أو تسع وأربعين وأربعمائة، وملك القدس من جهة تاج الدولة تتش السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولما توفي أرتق في التاريخ المذكور فيه تولاه بعده ولداه سكرمان وإيل غازي ابنا أرتق، ولم يزالا به حتى قصدهما الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى من مصر بالعساكر، وأخذ منهما في شوال سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، وتوجه إلى بلاد الجزيرة الفراتية وملك ديار بكر، وصاحب قلعة ماردين الآن من أولاده، وملك ولده نجم الدين إيل غازي مدينة ماردين سنة إحدى وخمسمائة وكان ولاء السلطان محمد شحنكية بغداد، وتوفي سكرمان بن أرتق بعلة الخوانيق في طريق الفرات بين طرابلس والقدس سنة ثمان وتسعين وأربعمائة.

وكان أرتق رجلاً شهماً ذا عزيمة وسعادة وجد واجتهاد، وتوفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة رحمه الله تعالى، وهو بضم الهمزة وسكون الراء، وضم التاء المثناة من فوقها بعدها قاف، وأكسب بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح السين المهملة وبعدها باء موحدة، وقيل هو كسك بالكاف بدل الباء والله أعلم.

أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأتراك ببغداد

يقال إنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه والله أعلم. وهو الذي خرج على الإمام القائم بأمر الله ببغداد، وكان قد قدمه على جميع الأتراك وقلده الأمور بأسرها وخطب له على منابر العراق وخوزستان، فعظم أمره وهابته المملوك، ثم خرج على الإمام القائم وأخرجه من بغداد وخطب للمستنصر العبيدي صاحب مصر، فراح الإمام القائم إلى أمير العرب محيي الدين أبي الحارث مهارش بن المجلي العقيلي صاحب الحديثة وعانة فأواه، وقام بجميع ما يحتاج إليه مدة سنة كاملة حتى جاء طغرلبيك السلجوقي المذكور بعد هذا، وقاتل البساسيري المذكور، وقتله وعاد القائم إلى بغداد، وكان دخوله إليها في مثل اليوم الذي خرج منها بعد حول كامل، وكان ذلك من غرائب الاتفاق وقصته مشهورة وقتله عسكر السلطان طغرلبيك السلجوقي ببغداد يوم الخميس خامس عشر ذي الحجة.

وقال ابن العظيبي: يوم الثلاثاء حادي عشر ذي الحجة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وطيف برأسه في بغداد، وصلب قبالة باب النوى.

والبساسيري بفتح الباء الموحدة والسين المهملة، وبعد الألف سين مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة مثناة من تحتها، وبعدها راء، هذه النسبة إلى بلدة بفارس يقال لها بسا، وبالعربية فسا، والنسبة إليها بالعربي فسوي، ومنها الشيخ أبو علي الفارسي النحوي صاحب الايضاح، ويقال له فسوي أيضا وأهل فارس يقولون في النسبة إليها البساسيري، وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل، وكان سيد أرسلان المذكور من بسا فنسب المملوك إليه، واشتهر بالبساسيري هكذا ذكره السمعاني نقلا عن

الأديب أبي العباس أحمد بن علي بن بابيه القاساني، وفي هذه اللفظة زيادة ليست في الأصل.

ومات الأمير مهارش بن المجلي في صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقد ناهز ثمانين سنة وهو مهارش بن المجلي بن عكيث بن قباث بن شعب بن المقلد بن جعفر بن عمرو بن المهنا، وبقية نسبه ستأتي في ترجمة المقلد بن المسيب إن شاء الله تعالى.

أبو الحارث أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب
الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن اق سنقر صاحب
الموصل المعروف بأتابك الملقب الملك العادل نور الدين
وسياتي ذكر جماعة من آل بيته إن شاء الله تعالى كل واحد
في حرفه

ملك نور الدين المذكور الموصل بعد وفاة أبيه في التاريخ المذكور
هناك، وكان ملكا شهما عارفا بالأمر وانتقل إلى مذهب الشافعي رضي الله
عنه، ولم يكن في بيته شافعي سواه، وبني مدرسة للشافعية بالموصل قل
ان توجد مدرسة في حسنهما، وتوفي ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجب
سنة سبع وستائة في شبارة بالشط ظاهر الموصل، والشبارة عندهم هي
الحراقة بمصر، وكنم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل ودفن
في تربته التي بمدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وخلف ولدين: هما الملك
القاهر عز الدين مسعود، والملك المنصور عماد الدين زنكي، وهما
مذكوران في ترجمة جدهما عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، فليطلب
منه إن شاء الله تعالى.

وقام بالمملكة بعده ولده الملك القاهر، كما هو مشروح هناك، وهو
أستاذ الأمير بدر الدين أبي الفضائل لؤلؤ، الذي تغلب على الموصل
وملكها في سنة ثلاثين وستائة في أواخر شهر رمضان، وكان قبل نائبا
بها، ثم استقل وهو المذكور في ترجمة عماد الدين بن المشطوب.

أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف
بالحاجب جد البيت الأتابكي أصحاب الموصل، وهو والد
عماد الدين زنكي بن آق سنقر الآتي ذكره إن شاء الله تعالى

كان مملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي هو وبزان
صاحب الرها، ولما ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي في
مدينة حلب استناب فيها آق سنقر المذكور، واعتمد عليه لأنه مملوك
أخيه فعصى عليه، فقصده تاج الدولة وهو صاحب دمشق يومئذ فخرج
لقتاله وجرى بينهما مصاف وحرب شديد، وانجلت عن قتل آق سنقر
المذكور، وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وأربعمائة، ودفن
بالمدرسة المعروفة بالزجاجية داخل حلب رحمه الله تعالى، ورأيت عند قبره
خلقا كثيرا يجتمعون كل يوم جمعة لقراءة القرآن الكريم، وقالوا: إن لهم
على ذلك وقفا عظيما يفرق عليهم، ولأعلم من وقفه، ثم إني وجدت
الذي وقفه ولد ولده نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى،
وسأتي في ترجمة تاج الدولة تتش خبر آق سنقر المذكور، على خلاف هذه
الواقعة والله أعلم بالصواب.

والزجاجية بناها أبو الربيع سليمان بن عبد الجبار بن أرتق صاحب
حلب، وكان أولا مدفونا بقرنبيبا، فلما ملك ولده عماد الدين زنكي
حلب نقله إلى المدرسة ودلاه من سور البلد، وكان قتل آق سنقر على
قرية يقال لها رويان بالقرب من سبعين من أعمال حلب، ذكرها ياقوت
الحموي.

أبو سعيد آق سنقر البرسقي الغازي الملقب قسيم الدولة سيف الدين

صاحب الموصل والرحبة وتلك النواحي، وملكها بعد اسباسلار مودود، وكان مودود بها وبيلاذ الشام من جهة السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فقتل مودود بجامع دمشق يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسمائة، وكان قد وثب عليه جماعة من الباطنية فقتلوه، وآق سنقر يومئذ شحنة بغداد، كان ولاه إياها السلطان محمد المذكور في سنة ثمان وتسعين وأربعمائة لما استقرت له السلطنة بعد موت أخيه بركياروق.

وفي سنة تسع وتسعين وجهه السلطان محمد لمحاصرة تكريت وكان بها كيقباز بن هزارسب الديلمي المنسوب إلى الباطنية، فأصعد آق سنقر إليه في رجب من السنة المذكورة، وحاصره إلى المحرم من سنة خمسمائة، فلما كاد أن يأخذها أصعد إليه سيف الدولة صدقة فتسلمها، وانحدر كيقباز صحبته، ومعه أمواله وذخائره، فلما وصل إلى الحلة مات كيقباز، فلما وصل خبر قتل مودود تقدم السلطان محمد إلى آق سنقر بالتجهز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل وملكها وغزا ودفع الفرنج عن حلب وقد ضايقوها بالحصار، ثم عاد إلى الموصل وأقام بها إلى أن قتل. وهو من كبراء الدولة السلجوقية، وله شهرة كبيرة بينهم، قتلته الباطنية بجامع الموصل يوم الجمعة التاسع من ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة.

وذكر ابن الجوزي في تاريخه أن الباطنية قتلته في مقصورة الجامع بالموصل سنة تسع عشرة وخمسمائة، وقال العماد: سنة عشرين وذكر أنهم جلسوا له في الجامع بزي الصوفية، فلما انفتل من صلاته قاموا إليه

وأثخنوه جراحا في ذي القعدة، وذلك لأنه كان تصدى لاستئصال شأفتهم وتتبعهم وقتل منهم عصابة كبيرة رحمه الله تعالى.

وتولى ولده عز الدين مسعود موضعه ثم توفي يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وخمسة رحمه الله تعالى وملك بعده عماد الدين زنكي بن آق سنقر المذكور قبله كما سيأتي في حرف الزاي إن شاء الله تعالى.

والبرسقي بضم الباء الموحدة وسكون الراء وضم السين المهملة وبعدها قاف ولا أعلم هذه النسبة إلى أي شيء هي، ولم يذكرها السمعاني، ثم إني وجدت نسبه بعد هذا إلى برسق، وكان من ممالك السلطان طغرلبيك أبي طالب محمد الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وتقدم في الدولة السلجوقية، وكان من الأمراء المشار إليهم فيها، المعدودين من أعيانهم.

تاج الدولة أبو سعيد تتش بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي.

كان صاحب البلاد الشرقية، فلما حاصر أمير الجيوش بدر الجمالي مدينة دمشق، من جهة صاحب مصر، وكان صاحب دمشق يومئذ أئسز ابن أوق الخوارزمي التركي، سير أئسز المذكور إلى تتش، فاستنجد به، فأنجده وسار إليه بنفسه، فلما وصل إلى دمشق خرج إليه أئسز، فقبض عليه تتش، واستولى على مملكته، وذلك في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر، وكان قد ملك دمشق في ذي القعدة سنة ثمان وستين وأربعمائة.

ورأيت في بعض التواريخ أن ذلك كان سنة اثنتين وسبعين، والله أعلم.

ثم ملك حلب بعد ذلك في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة كما تقدم في ترجمة آق سنقر، واستولى على البلاد الشامية، ثم جرى بينه وبين ابن أخيه بركياروق، المقدم ذكره منافرات ومشاجرات أدت إلى المحاربة، فتوجه إليه فتصافا بالقرب من مدينة الري، في يوم الأحد سابع عشر صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، فانكسر تتش المذكور، وقتل في المعركة ذلك النهار.

ومولده في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وخلف ولدين - أحدهما فخر الملوك رضوان، والآخر شمس الملوك أبو نصر دقاق، فاستقل رضوان بمملكة حلب، ودقاق بمملكة دمشق، وتوفي رضوان في سلخ جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة، ومن نوابه أخذ الفرنج أنطاكية في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة.

وتوفي دقاق في ثامن عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وأربعمائة،

ودفن في مسجد بحكر الفهاديين بظاهر دمشق الذي على نهر بردى، وكان قد حصل له مرض متناول، وقيل إن أمه سمته في عنقود عنب، فلما مات قام بالملك ظهير الدين أبو منصور طغتكين، وكان أتابكه وتزوج أمه في حياة أبيه، وزوجه إياها، وهو عتيق تتش، رحمهم الله تعالى.

وأولاد الملك رضوان المقيمون بظاهر حلب هم أولاد رضوان المذكور، ولم يزل ظهير الدين طغتكين مالك دمشق، إلى أن توفي يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسة وتسوى الأمر بعده ولده تاج الملوك أبو سعيد بوري إلى أن توفي يوم الاثنين الحادي والعشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسة من جراحة أصابته من الباطنية، وتولى بعده ولده شمس الملوك اسماعيل إلى أن قتل يوم الأربعاء رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وخمسة قتله أمه خاتون زمرد بنت جاوي، وأجلست أخاه شهاب الدين أبا القاسم محمود بن بوري فتولى الأمر بعده بدمشق إلى أن قتل ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال سنة ثلاث وثلاثين وخمسة، قتله غلامه البقش ويوسف الخادم والفراش الخركاوي، وصبيحة قتله وصل أخوه جمال الدين محمد بن بوري من بعلبك، وكان صاحبها فملك دمشق، وأقام بها إلى أن توفي ليلة الجمعة ثامن شعبان سنة أربع وثلاثين وخمسة، وتولى بعده مملكة دمشق ولده مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين إلى أن نزل عليها نور الدين محمود بن زنكي في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى وأخذها منه وعرضه عوضه عنها حمص، فأقام بها يسيرا ثم انتقل الى بالس التي على الفرات بأمر نور الدين وأقام بهامدة ثم توجه الى بغداد واقبل عليه الامام المقتضي ولا أعلم متى مات، ولما كان بدمشق كان مدبر دولته معين الدين انر بن عبد الله مملوك جده طغتكين، وهو الذي ينسب إليه قصر معين الدين ببلاد الغور من أعمال دمشق، وتوفي معين الدين المذكور في ليلة الثالث

والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وخمسة، وهو الذي تزوج نور الدين محمود ابنته، تزوجها من بعده السلطان صلاح الدين رحمهم الله اجمعين، وله بدمشق مدرسة ثم وجدت تاريخ وفاة مجير الدين أبق فذكرتها في ترجمة نور الدين محمود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذي بن مروان الملقب فخر الدين

وقد تقدم ذكر أبيه وأخيه تاج الملوك، وهو أخو السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى، وكان أكبر منه وكان السلطان يكثر الثناء عليه ويرجحه على نفسه، وبلغه أن باليمن انسانا يسمى عبد النبي بن مهدي يزعم أنه ينتشر ملكه حتى يملك الأرض كلها، وكان قد ملك كثيرا من بلادها، واستولى على حصونها وخطب لنفسه، وكان السلطان قد ثبتت قواعده وقوي عسكره، فجهز أخاه شمس الدولة المذكور بجيش اختاره وتوجه إليها من الديار المصرية في أثناء رجب سنة تسع وستين وخمسة، فمضى إليها وفتح الله على يديه وقتل الخارجي الذي كان فيها، وملك معظمها وأعطى وأغنى خلقا كثيرا، وكان كريما أريزيا، ثم إنه عاد من اليمن والسلطان على حصار حلب، فوصل إلى دمشق في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين، ولما رجع السلطان من الحصار وتوجه إلى الديار المصرية استخلفه بدمشق، فأقام بها مدة ثم انتقل إلى مصر.

وذكر ابن شداد في سيرة صلاح الدين أنه توفي يوم الخميس مستهل صفر، وقال في موضع آخر من السيرة أيضا: خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسة بئر الاسكندرية المحروس، ونقلته أخته شقيقته ست الشام بنت أيوب إلى دمشق ودفنته في مدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق، فهناك قبره وقبرها وقبر ولدها حسام الدين عمر بن لاجين، وقبر زوجها ناصر الدين أبي عبد الله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص، وكانت تزوجته بعد لاجين رحمهم الله أجمعين، وكانت وفاة حسام الدين المذكور ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة سبع وثمانين وخمسة.

وهذا حسام الدين المذكور هو سيد شبل الدولة كافور بن عبد الله

الحسامي الخادم صاحب المدرسة والخانقاه الشبلية اللتين في ظاهر دمشق على طريق جبل قاسيون، ولهما شهرة في مكائهما وله أوقاف كثيرة ومعروف نافع في الدنيا والآخرة، وكانت وفاته في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة ودفن في تربته المجاورة لمدرسته المذكورة وسيأتي ذكر ناصر الدين محمد بن شيركوه في ترجمة أبيه في حرف الشين إن شاء الله تعالى.

وتوفيت ست الشام المذكورة في سادس عشر ذي القعدة سنة ست عشرة وستمائة.

وبعد الفراغ من هذه الترجمة وجدت بخط بعض الفضلاء ممن له عناية بهذا الفن زيادة على ما ذكرته ههنا، فتركت ما هو مذكور في هذا المكان، وأتيت بتلك الزيادة فقال: لما تمهدت بلاد اليمن لشمس الدولة، واستقامت له أمورها كره المقام بها لكونه تربية بلاد الشام وهي كثيرة الخير، واليمن بلاد مجدبة من ذلك كله، فكتب إلى أخيه صلاح الدين يستقبل منها ويسأله الأذن له في العود إلى الشام، ويشكو حاله وما يقاسيه من عدم المرافق التي يحتاج إليها فأرسل إليه صلاح الدين رسولا مضمون رسالته ترغيبه في الإقامة، وأنها كثيرة الأموال ومملكة كبيرة، فلما سمع الرسالة قال لمتولي خزانته: أحضر لنا ألف دينار فأحضرها، فقال لأستاذ داره والرسول حاضر عنده: أرسل هذا الكيس إلى السوق يشترون لنا بهافيه قطعة ثلج، فقال أستاذ الدار: يامولانا هذه بلاد اليمن من أين يكون فيها ثلج، فقال: دعهم يشترون بها طبق مشمش لوزي، فقال: من أين يوجد هذا النوع ههنا، فجعل يعدد عليه جميع أنواع فواكه دمشق وأستاذ الدار يظهر التعجب من كلامه، وكلما قال له عن ذلك نوع يقول له: يامولانا من أين يوجد هذا ههنا؟ فلما استوفى الكلام إلى آخره قال للرسول: ليت شعري ماذا أصنع بهذه الأموال إذا لم أنتفع بها في ملاذي وشهواتي، فإن المال لا يؤكل بعينه بل الفائدة فيه أنه يتوصل به الانسان

إلى بلوغ أغراضه، فعاد الرسول إلى صلاح الدين، وأخبره بما جرى، فأذن له في المجيء وكان القاضي الفاضل يكتب إليه الرسائل الفاتمة ويودعها شرح الأشواق، فمن ذلك أبيات مشهورة ذكرها في ضمن كتاب، وهي:

لاتضجرن مما أتيت فإنه
صدر لأسرار الصبا بة ينفث
أما فراقك واللقاء فإن ذا
منه أموت وذاك منه أبعث
حلف الزمان على تفرق شملنا
فمتى يرق لنا الزمان ويحنث
كم يلبث الجسم الذي ما نفسه
فيه ولا أنفاسه كم يلبث
حول المضاجع كتبكم فكأنني
ملسوعكم وهي الرقاة النفث

ولما وصل إلى دمشق في التاريخ المقدم ذكره، ناب عن أخيه صلاح الدين بها، لما عاد صلاح الدين إلى الديار المصرية، ثم انتقل إلى الديار المصرية في سنة أربع وسبعين وخمسة، وكان أخوه صلاح الدين قد سيره في سنة ثمان وستين وخمسة إلى بلاد النوبة ليفتحها، قبل سفره إلى اليمن، فلما وصل إليها وجدها لاتساوي المشقة فتركها، ورجع وقد غنم شيئا كثيرا من الرقيق، وكانت له من أخيه اقطاعات، ونوابه باليمن يجبون له الأموال، ومات وعليه من الديون مائتا ألف دينار، فقضاها عنه صلاح الدين.

وحكى صاحبنا الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد بن علي المعروف بابن الخيمي الحلي، نزيل مصر، الأديب الفاضل، قال: رأيت في النوم شمس الدولة توران شاه بن أيوب، وهو ميت فمدحته بأبيات، وهو في القبر، فلف كفته ورماه إلي وأنشدني:

لا تستقلن معروفا سمحت به
ميتافأ مسيت منه عاريا بدني
ولا تظنن جوذي شابه بخل
من بعد بدني ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معي
من كل ما ملكت كفي سوى كفني

ولما كان في اليمن استناب في زبيد سيف الدولة أبا الميمون المبارك بن
منقذ الآتي ذكره في حرف الميم، إنشاء الله تعالى.

وتوران بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو، وبعدها راء ثم بعد
الألف نون، وهو لفظ أعجمي، وشاه بالشين المعجمة، هو الملك باللغة
العجمية، ومعناه ملك المشرق، وإنما قيل للمشرق توران، لأنه بلاد
الترك، والعجم يسمون الترك تركمان، ثم حرفوه فقالوا: توران، والله أعلم.

أبو سليمان داود الملقب الملك الزاهر مجير الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمهم الله تعالى.

كان صاحب قلعة البيرة التي على شاطئ الفرات، وكان يجب العلماء وأهل الفضل ويقصدونه من البلاد، ولما ولد بالقاهرة كان السلطان صلاح الدين بالشام، وكان الثاني عشر من أولاده، فكتب إليه القاضي الفاضل رسالة يبشره بولادته من جملتها: « وهذا المولود المبارك هو الموفى لاثني عشر ولدا، بل لاثني عشر نجما متقدا فقد زاده الله تعالى في أنجمه عن أنجم يوسف عليه السلام نجما، ورآهم المولى يقظة ورأى يوسف تلك الأنجم حلما، ورآهم يوسف ساجدين له، ورأينا الخلق لهم سجودا، وهو تعالى قادر أن يزيد في جدود المولى إلى أن يراهم آباء وجدودا » وقد ألم القاضي الفاضل في آخر هذا الكلام بقول البحري في مدح الخليفة المتوكل، وقد ولد له المعتر من قصيدة:

وبقيت حتى تستضيء برأيه

وتسرى الكهول الشيب من أولاده

وحكى عنه جماعة أنه كان يقول من أراد أن يبصر صلاح الدين فليصبرني فأنا أشبه أولاده به، وكانت ولادته لسبع بقين من ذي الحجة، وقيل القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسة، وهو شقيق الملك الظاهر الآتي ذكره في حرف الغين المعجمة إن شاء الله تعالى، وتوفي بالبيرة في ليلة التاسع من صفر سنة اثنتين وثلاثين وستة، وكنت بحلب وقد وصل نعيه إليها فتوجه الملك العزيز ابن الملك الظاهر أخيه إلى القلعة المذكورة وملكها رحمه الله تعالى، والبيرة بكسر الباء الموحدة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح الراء وبعدها هاء ساكنة، وهي قلعة بقرب سميساط من ثغور الروم على الفرات من جانب الجزيرة الفراتية. وسميساط في بر الشام بين قلعة الروم وملطية، والفرات يفصل بين الجهتين والله أعلم.

أبو الأغر ديبس بن سيف الدولة أبي الحسن صدقة بن
منصور بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدي الناشري
الملقب نور الدولة

ملك العرب صاحب الحلة المزيديّة، كان جوادا كريما عنده معرفة بالأدب والشعر، وتمكّن في خلافة الإمام المسترشد، واستولى على كثير من بلاد العراق، وهو من بيت كبير وسيأتي ذكر أبيه وأجداده في حرف الصاد إن شاء الله تعالى، وديبس المذكور هو الذي عناه الحريري صاحب المقامات في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: أو الأسدي ديبس لأنه كان معاصره كما نذكره في حرف القاف إن شاء الله تعالى، فرام التقرب إليه بذكره في مقاماته، ولجلالة قدره أيضا، وله نظم حسن، ورأيت العماد الكاتب في الخريدة وابن المستوفي في تاريخ إربل وغيرهما قد نسبوا إليه الأبيات اللامية التي من جملتها:

أسلمه حسب سليمانكم

إلى هوى أسره القتل

ورأيت ابن بسام صاحب كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة قد ذكرها لابن رشيق القيرواني، وقد ذكرتها في ترجمته في حرف الحاء، والظاهر أنها لابن رشيق لأن ابن بسام ذكر في الذخيرة أنه ألفها في سنة اثنتين وخمسة، وفي هذا التاريخ كان ديبس شابا يبعد أن يصل شعره في ذلك السن إلى الأندلس، وينسب إلى مثل ابن رشيق مع معرفة ابن بسام بأشعار أهل المغرب، وذكر ابن المستوفي في تاريخه أن بدران أخا ديبس كتب إلى أخيه المذكور وهو نازح عنه:

إلا قل لمنصور وقل لمسيب

وقل لديبس إنني لغريب

هنيئالكم ماء الفرات وطيبه

إذا لم يكن لي في الفرات نصيب

فكتب إليه ديبس:
إلا قل لبدران الذي حزننا زعنا
إلى أرضه والحرييس يجيب
تمتع بأيام السرور فإنما
عدار الأماني بالهموم يشيب
ولله في تلك الحوادث حكمه
وللأرض من كأس الكرام نصيب

وذكر غير ابن المستوفي أن بدران بن صدقة المذكور لقبه تاج الملوك، ولما قتل أبوه تغرب عن بغداد ودخل الشام فأقام بها مدة، ثم توجه إلى مصر ومات بها في سنة اثنتين وخمسة، وكان يقول الشعر، وذكره العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب الخريدة: وكان ديبس في خدمة السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وهم نازلون على باب المراغة من بلاد أذربيجان، ومعهم الإمام المسترشد بالله لسبب سنذكره في ترجمة مسعود المذكور إن شاء الله تعالى، فهجموا خيمته أعني المسترشد بالله وقتلوه يوم الخميس الثامن والعشرين.

وقال ابن المستوفي: الرابع عشر من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسة، وخاف أن تنسب القضية إليه وأراد أن تنسب إلى ديبس المذكور فتركه إلى أن جاء إلى الخدمة وجلس على باب خيمة السلطان، فسير بعض مماليكه فجاءه من ورائه وضرب رأسه بالسيف فأبانه، وأظهر السلطان بعد ذلك أنه إنما فعل هذا انتقاما منه بما فعل في حق الإمام، وكان ذلك بعد قتل الإمام بشهر رحمه الله تعالى، وذكر المأموني في تاريخه أنه قتل في رابع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة على باب خوي، وكان قد أحس بتغيير رأي السلطان فيه منذ قتل المسترشد، وعزم على الهرب مرارا وكانت المنية تشبطه.

وذكر ابن الأزرقي في تاريخه أن قتله كان على باب تبريز، وأنه لما قتل

حمل إلى ماردين إلى زوجته كهار خاتون فدفن بالمشهد عند نجم الدين
إلغازي صاحب ماردين، والد كهار خاتون المذكورة، ثم تزوج السلطان
المذكور زبيدة بنت الوزير نظام الملك، وسيأتي ذكر ذلك في ترجمة فخر
الدولة بن جهير إن شاء الله تعالى.

والناشري بفتح النون، وبعد الألف شين معجمة مكسورة، وبعدها
راء ثم ياء، هذه النسبة إلى ناشرة بن نصر، بطن من أسد بن خزيمة.

أبو الجود عماد الدين زنكي بن آق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور المعروف والده بالحاجب

كان صاحب الموصل، وقد تقدم ذكر أبيه في حرف الهمزة، وكان من الأمراء المقدمين، وفوض إليه السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسة، وكان لما قتل آق سنقر البرسقي المذكور في حرف الهمزة، وتوفي أيضا ولده مسعود حسبما ذكرناه في ترجمته ورد مرسوم السلطان محمود من خراسان بتسليم الموصل إلى ديبس بن صدقة الأسدي صاحب الحلة، وقد تقدم ذكره أيضا فتجهز ديبس للمسير، وكان بالموصل أمير كبير المنزلة يعرف بالجاولي، وهو مستحفظ قلعة الموصل ومتولي أمورها من جهة البرسقي، فطمع في البلاد وحدثه نفسه بتملكها، فأرسل إلى بغداد بهاء الدين أبا الحسن علي بن القاسم الشهرزوري وصلاح الدين محمد اليعقوبي لتقرير قاعدته، فلما وصلا إليها وجدا الإمام المسترشد قد أنكر تولية ديبس، وقال: لاسبيل إلى هذا، وترددت الرسائل بينه وبين السلطان محمود، ذلك، وآخر ما وقع اختيار المسترشد عليه تولية زنكي المذكور، فاستدعى الرسولين الواصلين من الموصل وقرر معهما أن يكون الحديث في البلاد لزنكي، ففعلا ذلك وضمنا للسلطان مالا وبذل له على ذلك المسترشد من ماله مائة ألف دينار، فبطل أمر ديبس وتوجه زنكي إلى الموصل وتسلمها، ودخلها في عاشر رمضان سنة إحدى وعشرين وخمسة كذا قال ابن العظيمي في تاريخه، وقد قيل إن انتقاله إلى الموصل كان في سنة اثنين وعشرين وخمسة، والأول أصح وسيأتي ذكر السلطان محمود في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

ولما تقلد زنكي الموصل سلم إليه السلطان محمود ولديه ألب أرسلان، وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما، فلهذا قيل له أتاك، لأن الأتابك هو الذي يربي أولاد الملوك وقد تقدم ذكر ذلك في حرف الجيم

عند ذكر جقر، ثم استوفى زنكي على ما ولى الموصل من البلاد، وفتح الرها يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسع وثلاثين وخمسة، وكانت لجوسلين الأرمني، ثم توجه إلى قلعة جعبر وملكها يوم ذاك سيف الدولة أبو الحسن علي بن مالك، فحاصرها وأشرف على أخذها، فأصبح يوم الأربعاء خامس عشر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسة مقتولاً، قتله خادمه وهو نائم على فراشه ليلاً، ودفن بصفين.

وذكر شيخنا عز الدين بن الأثير الجزري في تاريخه الأتابكي أن زنكي المذكور لما قتل والده كان عمره تقديراً عشر سنين، وقد تقدم تاريخ قتل والده في ترجمته، فيكون مولده سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وصفين بكسر الصاد المهملة وتشديد الفاء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون، وهي أرض على شاطئ الفرات بالقرب من قلعة جعبر إلا أنها في بر الشام، وقلعة جعبر في بر الجزيرة الفراتية بينهما مقدار فرسخ وأقل وفيها مشهد في موضع الوقعة التي كانت بها المشهورة التي بين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ومعاوية بن أبي سفيان، وبهذه الأرض قبور جماعة من الصحابة رضي الله عنهم حضروا هذه الوقعة وقتلوا بها منهم عمار بن ياسر رضي الله عنه.

وتوفي القاضي بهاء الدين الشهرزوري الرسول المذكور يوم السبت سادس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمسة بحلب، وحمل إلى صفين ودفن بها رحمة الله تعالى عليه.

أبو الفتح عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي المذكور قبلة المعروف بصاحب سنجار

قد ملك حلب بعد ابن عمه الملك الصالح نور الدين اسماعيل بن محمود بن زنكي، وكانت وفاة الصالح المذكور في سنة سبع وسبعين وخمسة، ثم إن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب نزل على حلب وحاصرها في سنة تسع وسبعين، وآخر الأمر وقع الاتفاق على أنه عوض عماد الدين زنكي المذكور سنجار وتلك النواحي، وأخذ منه حلب، وذلك في صفر سنة تسع وسبعين وخمسة، وانتقل زنكي إلى سنجار، ولم يزل بها إلى أن توفي في المحرم سنة أربع وتسعين وخمسة.

أبو الحارث شيركوه بن شادي بن مروان، الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى.

قد تقدم من حديثه نبذة في أخبار شاور، وكان شاور قد وصل إلى الشام يستنجد بنور الدين في سنة تسع وخمسين وخمسة، وذكر بهاء الدين بن شداد أن ذلك كان في سنة ثمان وخمسين، وأنهم وصلوا إلى مصر في الثاني من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، حكاة في سيرة صلاح الدين، فسير معه جماعة من عسكره وجعل مقدمهم أسد الدين شيركوه، وقدموا مصر، وغدر بهم شاور، ولم يف بها وعدهم به فغادروا إلى دمشق، وكان رحيلهم عن مصر في السابع من ذي الحجة من السنة المذكورة، ثم إنه عاد إلى مصر، وكان توجهه إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين لأنه طمع في ملكها في الدفعة الأولى، وسلك طريق وادي الغزلان، وخرج عند أطفيح وكانت في تلك الدفعة وقعة البابين عند الأشمونين، وتوجه السلطان صلاح الدين إلى الاسكندرية، واحتوى بها، وحاصره شاور وعسكر مصر، ثم رجع أسد الدين من الصعيد إلى بلييس، وجرى الصلح بينه وبين المصريين وسيروا له السلطان صلاح الدين، وعاد إلى الشام، ولما وصل الفرنج إلى بلييس وملكوها وقتلوا أهلها في سنة أربع وستين سيروا إلى أسد الدين، وطلبوه ومنوه ودخلوا في مرضاته لأن ينجدهم، فمضى إليهم وطرد الفرنج عنهم، وكان وصوله إلى مصر في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة وعزم شاور على قتله، وقتل الأمراء الكبار الذين معه فبادروه وقتلوه كما تقدم في ترجمته، وتولى أسد الدين الوزارة يوم الأربعاء سابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمسة، وأقام بها شهرين وخمسة أيام، ثم توفي فجأة يوم السبت الثاني والعشرين، وقال الروحي يوم الأحد الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسة بالقاهرة، ودفن بها ثم نقل إلى مدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد مدة بوصية منه رحمه الله تعالى وتولى مكانه صلاح الدين.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: إن أسد الدين كان كثير الأكل شديد المواظبة على تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التخم والخوانيق، وينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة فأخذه مرض شديد واعتراه خانوق عظيم فقتله في التاريخ المذكور، ولم يخلف ولدا سوى ناصر الدين محمد بن شيركوه الملقب الملك القاهر، ولما مات أسد الدين أخذ نور الدين حمص منهم في رجب سنة أربع وستين وخمسة، فلما ملك صلاح الدين الشام أعطى حمص لناصر الدين المذكور ولم يزل ملكها حتى توفي يوم عرفة سنة إحدى وثمانين وخمسة، ونقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدريستها بدمشق ظاهر البلد ودفنته عند أخيها شمس الدولة توران شاه بن أيوب المقدم ذكره، وملك حمص بعده ولده أسد الدين شيركوه ومولده في سنة تسع وستين وخمسة، وتوفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب سنة سبع وثلاثين وستة بحمص، ودفن في تربته داخل البلد، وكانت له أيضا الرحبة وتدمر وماكسين من بلد الخابور، وخلف جماعة من الأولاد، فقام مقامه في الملك ولده الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم، ولم يزل حتى توفي يوم الجمعة عاشر صفر سنة أربع وأربعين وستة بالنيرب من غوطة دمشق، ونقل إلى حمص ودفن ظاهر البلد في مسجد الخضر عليه السلام من جهتها القبلية، وترتب مكانه ولده الملك الأشرف مظفر الدولة أبو الفتح موسى، وأخبرني الأشرف المذكور بدمشق في أواخر سنة إحدى وستين وستة أن مولده في السنة التي كسر فيها الخوارزمية بالروم وأن والده بشر به وهم راجعون من هناك، وكانت الواقعة في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستة حسبا هو مشروح في ترجمة الأشرف بن العادل، وقال لي: إن والده لما بشر به قال للملك الأشرف بن العادل: ياخوند قد زاد في ماليكك واحد، فقال: سمه باسمي فسماه الأشرف مظفر الدين ابا الفتح

موسى، وكانت وفاة الأشرف بن المنصور المذكور بحمص يوم الجمعة
عاشر صفر سنة اثنتين وستين وستمائة، ودفن عند قبر أسد الدين
شيركوه جده داخل حمص، فيكون تقدير ولادته في شوال أو ذي القعدة
سنة سبع وعشرين، وشيركوه لفظ عجمي تفسيره بالعربي أسد الجبل،
فشير أسد وكوه جبل، وحج شيركوه في سنة خمس وخمسين وخمسمائة من
دمشق على طريق تيماء وخيبر، وفي تلك السنة حج زين الدين علي بن
بكتكين على طريق العراق واجتمع بالخليفة.

سيف الاسلام أبو الفوارس طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن

كان أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين ملك الديار المصرية قد سير أخاه شمس الدولة توران شاه المقدم ذكره في حرف التاء إلى بلاد اليمن، فملكها واستولى على كثير من بلادها، ورجع عنها حسبا هو المذكور في ترجمته، ثم سير السلطان إليها بعد ذلك أخاه سيف الاسلام المذكور، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمسة وثمانين وكان رجلا شجاعا كريما مشكور السيرة، حسن السياسة، مقصودا من البلاد الشاسعة لاحسانة وبره، ورحل إليه شرف الدين أبو المحاسن بن عنين الدمشقي الآتي ذكره في حرف الميم، ومدحه بغرر القصائد فأحسن إليه وأجزل صلته، واكتسب من جهته مالا وافرا، وخرج به من اليمن، فلما وصل إلى الديار المصرية وسلطانها يومئذ الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان صلاح الدين ألزمه أرباب ديوان الزكاة بدفع الزكاة من المتاجر التي وصلت صحبته فعمل في ذلك:

ماكل من يتسمى بالعزيز لها
أهل ولاكل برق سحبه غدقه
بين العزيزين بون في فعالها
هذاك يعطي وهذا يأخذ الصدقة

وكانت وفاة سيف الاسلام في شوال التاسع عشر من سنة ثلاث وتسعين وخمسة بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن رحمه الله تعالى.

وتولى بعده ولده الملك المعز فتح الدين اسماعيل، وللمعز المذكور صنف أبو الغنائم مسلم بن محمود بن نعمه بن أرسلان الشيزري كتابه الذي سماه «عجائب الأسفار وغرائب الأخبار» وأودع فيه من أشعاره وأخبار الناس كثيرا، وذكر العز بن عساكر أنه مات بالحمراء من بلاد

اليمن، وذكر أبو الغنائم المذكور في كتابه الذي سماه « جمهرة الاسلام ذات النثر والنظم » أنه مات بتعز ودفن بها بالمدرسة، ثم قال: وقتل ولده فتح الدين أبو الفداء اسماعيل في رجب سنة ثمان وتسعين بمكان يقال له عجي شامي زبيد، وتولى مكانه أخوه الملك الناصر أيوب.

وكان أبو الغنائم المذكور أديبا شاعرا، وكان موجودا في سنة سبع عشرة وستمائة، فقد توفي في هذه السنة أو بعدها، وكان أبوه أبو الثناء محمود نحويا متصديرا بجامعة دمشق لاقراء النحو، وذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير، وذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة، وقال: توفي بعد سنة خمس وستين وخمسمائة، وقال شرف الدين بن عنين: أنشدني محمود المذكور لنفسه:

يقولون كافات الشتاء كثيرة

وما هي إلا واحد غير مفترى

إذا صح كاف الكيس فالكل حاصل

لديك وكل الصيد يوجد في الفرا

وكان جده أرسلان مملوك ابن منقذ صاحب شيزر.

وطغتكين بضم الطاء المهملة، وسكون الغين المعجمة، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، وهو اسم تركي.

أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح وزير مصر

كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، فلما قتل الظاهر اسماعيل صاحب مصر كما تقدم في حرف الهمزة، سير أهل القصر إلى الصالح واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة ومعه جمع عظيم من العربان فلما قربوا من البلد هرب عباس وولده وأتباعهما ومعهما أسامة بن منقذ المذكور في حرف الهمزة أيضا، لأنه كان مشاركا لهما في ذلك على ما يقال، ودخل الصالح إلى القاهرة وتولى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة، وكانت ولايته في التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسة، وكان فاضلا سمحا في العطاء، سهلا في اللقاء، محبا لأهل الفضائل جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين ومن شعره قوله:

كم ذابرينا الدهر من أحداثه
عبرا و فينا الصد والإعراض
ننسى المات وليس يجري ذكره
فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره أيضا:
ومهفهف ثمل القوام سرت إلى
أعطافه النشوات من عينيه
ما ضي اللحاظ كأنها سلت يدي
سيفي غداة الروع من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة
في خده أليفه لالاميه
ما الشعر دب بعارضيته وإنما
أصداغه نفضت على خديه

الناس طوع يدي وأمري ذافذ
فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فأعجب لسلطان يعم بعدله
ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه
مستقبح لفررت منه إليه

وروى عنه أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الأنصاري
الملقب زين الدين الحنيلي، المعروف بابن نجية الواعظ المشهور
الدمشقي، قال أنشدني طلائع بن رزيك لنفسه بمصر:
مشيبك قد نضصبا صبغ الشباب
وحل الباز في وكر الغراب
تمام ومقلة الحدثنان يقظي
وماناب النوائب عنك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز
وقد أنفقت منه بلا حساب

وكان المهذب عبد الله بن أسعد الموصلني نزيل حمص قد قصده من
الموصل، ومدحه بقصيدته الكافية التي أولها:
أماكفاك تلافني في تلافيك
ولست تنقسم الا فرط حيككا

وهي من نخب القصائد ومخلصها:
وفيم تغضب إن قال الوشاة سلا
وأنت تعلم أي لست أسلوكا
لأنت وصلك إن كان الذي زعموا
ولاشفى ظمئي جودا بن رزيكا

وهي طويلة طائفة، ولولا خوف الاطالة لكتبتها.

ولما مات الفائز وتولى العاضد مكانه، استمر الصالح على وزارته، وزادت حرمة، وتزوج العاضد ابنته فاغتر بطول السلامة، وكان العاضد تحت قبضته وفي أسره، فلما طال عليه ذلك أعمل الحيلة في قتله، فاتفق مع قوم من أجناد الدولة يقال لهم أولاد الراعي، وتقرر ذلك بينهم، وعين لهم موضعا في القصر يجلسون فيه مستخفين فإذا مر بهم الصالح ليلا أو نهارا قتلوه، ففعدوا له ليلة وخرج من القصر فقاموا ليخرجوا إليه، فأراد أحدهم أن يفتح غلق الباب فأغلقه وما علم، فلم يحصل مقصودهم تلك الليلة لأمر أراه الله تعالى في تأخير الأجل، ثم جلسوا له يوما آخر فدخل القصر نهارا فوثبوا عليه وجرحوه جراحات عديدة بعضها في رأسه، ووقع الصوت، فعاد أصحابه إليه فقتلوا الذين جرحوه وحمل إلى داره مجروحا ودمه يسيل، وأقام بعض يوم ومات يوم الاثنين تاسع عشر رمضان سنة ست وخمسين وخمسة، رحمه الله تعالى، وكانت ولادته في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وخرجت الخلع لولده العادل محيي الدين رزيق المقدم ذكره في ترجمة شاور يوم الثلاثاء ثاني يوم وفاة أبيه، وكنيته أبو شجاع، ولما تولى الوزارة لقبوه العادل الناصر، ولما مات رثاه الفقيه عمارة اليميني بقصيدة أولها:

أفي أهل ذا النادي عليم أسائله
فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله

سمعت حديثا أحسد الصم عنده
ويذهل واعيه ويخرس قائله
فهل من جواب يستغيث به المنى
ويعلو على حق المصيبة باطله
وقدر ابني من شاهد الحال أنني
أرى الدست منصوبا ومافيه كافله
فهل غاب عنه واستناب سليله
أم اختار هجر الأيرجى توأصله

فإني أرى فوق الوجوه كآبة
تدل على أن الوجوه ثواكله

ومنها:

دعوني فها هذا أو ان بكائه
سيأتيكم طل البكاء ووابله
ولاتنكروا حزني عليه فإنني
تقشع عني وابل كنت آمله
ولم لانبكيه ونندب فقده
وأولادنا أيتامه وأرامله
فياليت شعري بعد حسن فعاله
وقد غاب عنا ما بنا الله فاعلة
أيكرم مشوى ضيفكم وغريكم
فيمكث أم تطوى بين مراحلته

وهي طويلة، وكان قد دفن بالقاهرة، ثم نقله ولده العادل من دار
الوزارة التي دفن فيها وهي المعروفة بإنشاء الأفضل شاهنشاه المقدم
ذكره، وكان نقله في تاسع عشر صفر سنة سبع وخمسين في تابوت،
وركب خلفه العاضد إلى تربته التي بالقرافة الكبرى، فعمل في ذلك
الفقيه عمارة أيضا قصيدة طويلة وأجاد فيها، ومن جملتها في صفة
التابوت:

وكانه تابوت موسى أودعت
في جانبيه سكينه ووقار

وله فيه مرث كثيرة، وهذا الصالح هو الذي بنى الجامع الذي على
باب زويلة بظاهر القاهرة، وأما ولده العادل رزيك فقد ذكرت في ترجمة
شاور تاريخ هربه من القاهرة وكان قد حمل معه من الذخائر ما لا يحصى
ومعه أهله وحاشيته، واستجار بسليمان وقيل بيعقوب بن البيض

اللخمي، وكان من خواص أصحابهم وحصل من جهتهم نعمة وافرة، فأنزلهم عنده وهو بأطفيح، وسار من ساعته إلى شاور وأعلمه بهم، فندب معه جماعة ومضوا إلى العادل وأخذوه أسيرا وأحضره إلى باب شاور، فوقف زمانا طويلا، ثم حبسه ثم قال شاور لابن البيض: لقد خباك الصالح ذخيرة صالحة لولده، وأنا أخبوك أيضا لولدي ثم شنقه، وبقي العادل في الاعتقال مدة مديدة، ثم قتله وأخرج رأسه لأمرأء الدولة.

ومن العجائب أن الصالح ولي الوزارة في التاسع عشر، وقتل في التاسع عشر، ونقل تابوته في التاسع عشر، وزالت دولتهم في التاسع عشر، ورزيك بضم الراء، وتشديد الزاء المكسورة، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها كاف.

وكانت ولادة زين الدين الواعظ المذكور سنة ثمان وخمسمائة بدمشق، ونشأ بها، وقدم بغداد مرارا، وصاهر أبا الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل بن سعد البلنسي الانصاري الاندلسي على ابنته أم عبد الكريم فاطمة، وانتقل قبل وفاته إلى مصر وحدث بها، وتوفي يوم الاربعاء ثامن رمضان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمصر، وهو المعروف بابن نجية رحمه الله تعالى.

الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب

كان نائبا عن أبيه في الديار المصرية، لما كان أبوه بالشام، وتوفي أبوه بدمشق، فاستقل بملكها باتفاق من الأمراء كما هو مشهور، فلا حاجة إلى شرحه وكان ملكا مباركا كثير الخير، واسع الكرم محسنا إلى الناس، معتقدا في أرباب الخير والصلاح، وسمع بالاسكندرية الحديث من الحافظ السلفي، ويقال إن والده كان يؤثره على بقية أولاده، ولما ولد له الملك المنصور ناصر الدين محمد، كان والده بالشام، والقاضي الفاضل بالقاهرة فكتب إليه يهنئه: «المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر دام رشده وإرشاده وزاد سعده وإسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده وأعداده، واشتد باعضاده فيهم اعضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم المملوك، وهذه أولاده، وينهى أن الله تعالى، وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولدا مباركا عليا ذكرا سريا برا زكيا نقيًا من ذرية كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء، ومماليكه ملوكا في الأرض».

وكانت ولادة الملك العزيز بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة، وكان قد توجه إلى الفيوم، فطرد فرسه وراء صيد، فتقنطر به فأصابته الحمى من ذلك، وحمل إلى القاهرة فتوفي بها في الساعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

نقلت من خط القاضي الفاضل فصلا يتعلق بالملك العزيز بن صلاح الدين رحمه الله تعالى، مأمثاله: «لما كان يوم السبت تاسع عشر المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة اشتد المرض بالملك العزيز، وخيف عليه، وأدركه في ليله فواق وأخذ نبضه في الضعف، وأصبح الطبيب على ياس

منه، ثم لما كان وقت الظهر وقعت البشرية أنه أفاق وحضر ذهنه، وكلم من حوله، وحضر إليه الأمراء والخوادم» ثم قال بعد ذلك: «إلى أن كان وقت العتمة من ليلة الأحد فبدت قوته تصغر، والفواق يشتد، وبغته الأمر، وعظمت الحمى، وصغر النبض، وكثر عليه الغشي وكانت وفاته في الساعة السابعة من ليلة الأحد، ولما كان في آخر الليل خرج فخر الدين جهاركس، وأسد الدين سراسنقر وجماعة من المماليك واستدعوا الأمراء فأحضرت، وأعلمت بوفاته، وقال المذكورون: إنا قد اجتمعت كلمتنا على أن يكون ولد العزيز الأكبر، وتقدير عمره عشر سنين واسمه محمد، ولقبه ناصر الدين المنتصب في السلطنة، والقائم بالأمر، وأن يكون أتاكبه بهاء الدين قراقوش، وقالوا قد كان السلطان استناب هذا الولد، واستخلف على تربيته قراقوش، ونريد أن نجتمع الأمراء ونخرج الخدام يبلغونهم رسالة عن السلطان، وأنه حي ومعنى الرسالة: إن هذا ولدي سلطانكم من بعدي، فاحلفوا له واحفظوني فيه، فقلت لهم: فإن طالبكم الأمراء بسماع هذه المقالة من السلطان ما الذي تقولون لهم؟ فرجعوا إلى أن يخاطبوا الأمراء إذا حضروا بأن السلطان وصى بهذه الوصية، وأنه قد قضى ويدخلون عليهم من جانب الموافاة لجد هذا الصبي وأبيه، فقلت لهم: لا تنتظروا اجتماع الأمراء فإنهم إن حضروا جملة فلا تأمنوا أن يتمنعوا جملة، بل كل من حضر من الأمراء تقولون له قد اتفقنا فكن معنا، وقد حلفنا، فاحلف كما حلفنا، وقدموا المصحف وأسرعوا في تلقينه، فجرى الأمر على هذا، فلما تكامل الحلف أو أكثره أحضروا الولد، فبكى الناس لما رأوه وصاحوا وقاموا إليه ووقفوا بين يديه، جميع ذلك قبل أن يسفر صباح الأحد، ثم صليت فريضة الفجر، وشرعوا في تجهيز الملك العزيز إلى قبره، وغسل في مكان موته، واجتمع الناس فيما بين الظهر والعصر للصلاة عليه، وكثر الزحام وقامت الواعية، فلم يخلص من دفنه إلى قريب المغرب، وخوطب ولده بالملك الناصر بلقب جده في هذا اليوم»، ولما مات كتب القاضي الفاضل إلى عمه الملك العادل رسالة

يعزيه من جملتها: « فنقول في توديع النعمة بالملك العزيز لاحول ولاقوة
إلا بالله قول الصابرين، ونقول في استبقائها بالملك العادل الحمد لله رب
العالمين قول الشاكرين ، وقد كان من أمر هذه الحادثة ما قطع كل قلب،
وجلب كل كرب، ومثل وقوع هذه الواقعة لكل أحد ولاسيما لأمثال
المملوك، ومواعظ الموت بليغة وأبلغها ما كان في شباب المملوك، فرحم الله
ذلك الوجه ونصره ثم السبيل إلى الجنة يسره.
وإذا محاسن أوجهه بليت
فغفا الثرى عن وجهه الحسن

والمملوك في حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضي قلب
وجسد، ووجع أطراف وغليل كبد، فقد فجع المملوك بهذا المولى، والعهد
بوالده غير بعيد، والأسى في كل يوم جديد، وما كان ليندمل ذلك القرح
حتى أعقبه هذا الجرح، فالله تعالى لا يعدم المسلمين بسطانهم الملك
العادل السلوة، كما لم يعدمهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم الأسوه» ودفن
في القرافة الصغرى في قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه، وقبره معروف
هناك.

أبو هاشم علي الملقب الظاهر لاعزاز دين الله بن الحاكم
ابن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي عبيد
الله صاحب مصر.

وقد تقدم ذكر جماعة من أهل بيته. كانت ولايته بعد فقد أبيه
بمدة، لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة
وأربعمائة، كما سيأتي في ترجمته إن شاء الله تعالى، وكان الناس يرجون
ظهوره ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم
النحر من السنة المذكورة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد
الشام، فقصده صالح بن مرداس الكلبي مدينة حلب وحاصرها، وفيها
مرتضى الدولة بن لؤلؤ الجراحي غلام أبي الفضائل بن شريف بن سيف
الدولة الحمداني، نيابة عن الظاهر المذكور، فانتزعها منه واستولى على
مايلها، وتغلب حسان بن مفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على
أكثر بلاد الشام، وتضعفت دولة الظاهر وجرت أمور وأسباب يطول
شرحها، واستوزر نجيب الدولة أبا القاسم علي بن أحمد الجرجاني، وكان
أقطع اليبدين من المرفقين، قطعها الحاكم والد الظاهر في شهر ربيع
الآخر سنة أربع وأربعمائة علي باب القصر البحري بالقاهرة المحروسة،
وحمل إلى داره، وكان يتولى بعض الدواوين، فظهرت عليه خيانة قطع
بسببها، ثم بعد ذلك ولي ديوان النفقات سنة تسع وأربعمائة، ثم وزر
للظاهر سنة ثمان عشرة وأربعمائة، وهذا كله بعد ان تنقل في الخدم
بالأرياف والصعيد، ولما استوزر كان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد
الله القضاعي صاحب كتاب الشهاب، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى،
وكانت علامته: « الحمد لله شكرا لنعمته » واستعمل في وزارته العفاف
والأمانة الزائدة والاحتراز والتحفظ، وفي ذلك يقول جاسوس الفلك:

يا أحمق اسمع وقل
ودع الرقاعة والتحامق

أَقَمْتِ نَفْسَكَ فِي الثَّقَا
ت وَهَبِكْ فِيمَا قَلْتِ صَادِق

فَمَنْ الْأَمَانَةَ وَالتَّقَى
قَطَعْتَ يَدَاكَ مِنْ الْمَرَا فِق

وهو منسوب إلى جرجرايا بفتح الجيمين، بينها راء ساكنة، ثم راء مفتوحة، وبين الألفين ياء مثناة من تحتها، وهي قرية من أرض العراق، وكانت ولادة الظاهر في يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة بالقاهرة، وتوفي آخر ليلة الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، رحمه الله تعالى، وسمعت أنه توفي ببستان الدكة، وكان بالمقس في الموضع المعروف بالدكة، وتوفي وزيره الجرجرائي سنة ست وثلاثين وأربعمائة في سابع شهر رمضان، وكانت مدة وزارته للظاهر وولده المستنصر سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وثمانية عشر يوما.

أبو القاسم عيسى الملقب بالفائز بن الظافر بن الحافظ
ابن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز
ابن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي.

وقد تقدم ذكر والده، وجماعة من أهل بيته وكيف قتل نصر بن عباس أباه حسبما شرح هناك، وهذا نصر ابن عباس هو الذي قتل العادل بن السلار، وقد رفعت هناك نسبه، فمن أراد معرفته، فليُنظر هناك، ولما كان صبيحة ليلة قتل فيها الظافر أقبل عباس إلى القصر على جاري عاداته في الخدمة، وأظهر عدم الاطلاع على قضيته، وطلب الاجتماع به ولم يكن أهل القصر قد علموا بقتله بعد، فإنه خرج من عندهم في خفية كما ذكر ثم، وما علم أحد بخروجه، فدخل الخدم إلى موضعه ليستأذنوا العباس، فلم يجذوه فدخلوا إلى قاعة الحرم فقبل إنه لم يبت ههنا، وحاصل الأمر أنهم تطلبوه في جميع مظانه في القصر فلم يقعوا له على خبر، فتحققوا عدمه فأخرج عباس المذكور أخوي الظافر وهما جبريل ويوسف، وهو أبو العاضد المقدم ذكره في جملة من اسمه عبد الله وقال لهما: أنتما قتلتما إما منا ومانعرف حاله إلا منكما، فأصرا على الإنكار، وكانا صادقين في ذلك فقتلها في الوقت لينفي عن نفسه وابنه التهمة، ثم استدعى ولده الفائز المذكور، وتقدير عمره خمس سنين وقيل ستان، فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار وأمر أن تدخل الأمراء، فدخلوا فقال لهم: هذا ولد مولاكم، وقد قتل عماء أباه، وقد قتلتهما به كما ترون، والواجب اخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا، وصاحوا صبيحة واحدة اضطرب منها الطفل وبال على كتف عباس، وسموه الفائز وسيروه إلى أمه واختل من تلك الصبيحة، فصار يصرع في كل وقت ويختلج، وخرج عباس إلى داره ودبر الأمور، وانفرد بالتصرف ولم يبق على يده، يد، وأما أهل القصر فإينهم اطلعوا على باطن الأمر وأخذوا في إعمال الحيلة في قتل عباس وابنه نصر، وكاتبوا الصالح بن رزيك الأرمني المذكور في حرف الطاء، وكان اذ ذاك والي منية ابن خصيب

بالصعيد، وسألوه الانتصار لهم ولبلوآهم، والخروج على عباس وقطعوا شعورهم وسيروها في طي الكتاب، وسودوا الكتاب، فلما وقف الصالح عليه أطلع من حوله من الأجناد وتحدث معهم في المعنى فأجابوا إلى الخروج معه، واستمال جمعا من العرب، وساروا قاصدين القاهرة، وقد لبسوا السواد فلما قاربوها خرج إليهم جميع من بها من الأمراء والاجناد والسودان، وتركوا عباسا وحده، فخرج عباس في ساعته من القاهرة هاربا ومعه شيء من ماله، وخرج معه ولده نصر قاتل الظافر وأسامة بن منقذ المذكور في حرف الهمزة، فقد قيل أنه الذي أشار عليها بقتل الظافر، وشرح ذلك يطول، وقد تقدم في ترجمة العادل بن السلار ذكره أيضا وأنه الذي أشار بقتله، والله العالم بالخفيات، وكان معهم جماعة يسيرة من أتباعهم، وقصدوا طريق الشام على إيلة وذلك في رابع عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسةائة.

أما الصالح بن رزيك فإنه دخل القاهرة بغير قتال، وماقدم شيئا على النزول بدار عباس المعروفة بدار المأمون بن البطائحي، وهي اليوم مدرسة للطائفة الحنفية، وتعرف بالسيوفية، واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ساعة قتله، وسأله عن الموضع الذي دفن فيه فعرفه به، وقلع البلاطة التي كانت عليه وأخرج الظافر ومن معه من المقتولين، وحملوا وقطعت لهم الشعور وانتشر البكاء والنواح في البلد، ومشى الصالح والخلق قدام الجنازة إلى موضع الدفن، وهو تربة آبائه، وهي معروفة في قصرهم، وتكفل بالصالح بالصغير، ودبر أحواله.

وأما عباس فإن أخت الظافر كاتبت فرنج عسقلان بسببه، وشرطت لهم مالا جزيلا إذا أمسكوه فخرجوا عليه وصادفوه فتواقعوا وقتلوا عباسا، وأخذوا ماله وولده وانهمز بعض اصحابه، إلى الشام وفيهم ابن منقذ، فسلموا، وسيرت الفرنج نصر بن عباس إلى القاهرة تحت الحوطة في قفص حديد، فلما وصل تسلم رسوهم ما شرطوا لهم من المال، فأخذوا

نصرا المذكور وضربوه بالسياط، ومثلوا به وصلبوه بعد ذلك على باب زويلة، ثم أنزلوه يوم عاشوراء من سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وأحرقوه. هذه خلاصة الواقعة وإن كان فيها طول.

وكان دخول نصر بن عباس إلى القصر بالقاهرة في السابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وأخرج من القصر يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وكان قد قطعت يده اليمنى، وقرضوا جسمه بالمقاريض، والله أعلم، وقيل كان ذلك اليوم يوم الجمعة ثامن الشهر المذكور، ولم تطل مدة الفائز في ولايته، وكانت ولادته يوم الجمعة لتسع بقين من المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وتولى في تاريخ وفاة والده وهو مذكور في ترجمته في حرف الهمزة، واسمه اسماعيل وتوفي ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده العاضد، وقد سبق ذكره وهو آخرهم.

الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق.

كان عالي الهمة، حازما شجاعا مهيبا فاضلا جامعا شمل أرباب الفضائل، محبا لهم، وكان حنفي المذهب متعصبا لمذهبه، وله فيه مشاركة حسنة، ولم يكن في بني أيوب حنفي سواه، وتبعه أولاده، وكان قد حج إلى بيت الله الحرام في سنة إحدى عشرة وستمائة، سار من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة في جماعة من خواصه، وسلك طريق العلا وتبوك، وفي هذه السنة أخذ المعظم صرخد من ابن قراجا، وأعطاها مملوكه عز الدين أيبك المعروف بصاحب صرخد، ولم يزل بها إلى أن أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل في سنة أربع وأربعين وستمائة، وحمله إلى القاهرة واعتقله بدار الطواشي صواب.

وكان المعظم يحب الأدب كثيرا، ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين فأحسنوا في مدحه، وكانت له رغبة في فن الأدب، وسمعت أشعارا منسوبة إليه ولم اتثبتها فلم أثبت منها شيئا، وقيل إنه كان قد شرط لكل من يحفظ المفصل للزخشي مائة دينار وخلعة، فحفظه لهذا السبب جماعة، ورأيت بعضهم بدمشق، والناس يقولون إنه كان سبب حفظهم له هذا، وقيل إنه لما توفي كان قد انتهى بعضهم إلى أواخره، وبعضهم إلى أثنائه وهم على قدر أوقات شروعاتهم فيه، ولم أسمع مثل هذه المنقبة لغيره، وكانت مملكته متسعة من حدود بلاد حمص إلى العريش، يدخل في ذلك بلاد الساحل الإسلامية منها وبلاد الغور وفلسطين والقدس والكرك والشوبك وصرخد وغير ذلك، وكانت ولادته في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة.

وذكر أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان أن المعظم ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة، وولد أخوه الأشرف

موسى قبله بليلة واحدة، وتوفي المعظم ليلة مستهل ذي الحجة سنة أربع وعشرين وستمائة، والله أعلم بالصواب.

وقال غيره: بل توفي يوم الجمعة ثامن ساعة من نهار سلخ ذي القعدة سنة أربع وعشرين وستمائة بدمشق، ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى جبل الصالحية ودفن في مدرسة هناك بها قبور جماعة من أخوته، وأهل بيته تعرف بالمعظمية، وكان نقله ليلة الثلاثاء مستهل المحرم سنة سبع وعشرين، وكان كثيرا ما ينشد هذا المقطوع:

ومورد الوجنات أغيد خاله
بالحسن من فرط الملاحظة عمه
كحل العيون وكان في أجفانه
كحل فقلت سقى الحسام وسمه

وهذا ينظر إلى قول عبد الجبار بن حمديس الصقلي المقدم ذكره:
زادت على كحل العيون تكحلا
وبسم نصل السيف وهو قتل

رحمه الله تعالى، فلقد كان من النجباء الأذكىء، أخبرني جماعة عن شرف الدين بن عنين بأمر كانت تجري بينهما، تدل على حسن الإدراك وإصابة القصد، منها أنه كان ابن عنين قد مرض فكتب إليه:

انظر إلي بعين مـولى لم يـزل
يولي الندى وتلاف قبل تلاف
أنا كالذي أحتاج ما يحتاجه
فاغنم ثوابي والثناء الوافي

فجاء بنفسه إليه يعودته ومعه صرة فيها ثلاثمائة دينار فقال: هذه الصلة، وأنا العائد، وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسته

طول عمره لاستعظم منه لاسيما مثل هذا الملك، وأشياء كثيرة غير هذه يطول شرحها، وكان المقصود ذكر نموذج منها ليستدل به على الباقي.

وتولى موضعه ولده الملك الناصر صلاح الدين داود، وتوفي في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وخمسين وستمائة في قرية يقال لها البويضا على باب دمشق ودفن عند والده، وكانت ولادته يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستمائة بدمشق، وتوفي عز الدين أيبك صاحب صرخد المذكور في أوائل جمادى الأولى من سنة ست وأربعين وستمائة، في موضع اعتقاله بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر في مدرسة شمس الدولة، وحضرت الصلاة عليه ودفنه ثم نقل إلى تربته في مدرسته التي أنشأها ظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير.

الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف
ابن القاسم بن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن
الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله
عنه.

هكذا أملى علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له الهكاري الملقب ضياء الدين. كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية، كبير القدر وافر الحرمة، معولا عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل بالمدرسة الزجاجية بمدينة حلب، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين المقدم ذكره، وصار إمامه يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه الأمير أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة بها كما سبق شرحه، كان في صحبته.

ولما توفي أسد الدين اتفق الفقيه عيسى المذكور والطواشي بهاء الدين قراقوش الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، على ترتيب السلطان صلاح الدين موضعه في الوزارة، ودققا في الحيلة في ذلك حتى بلغا المقصود، وشرح ذلك يطول، فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الأدلال عليه يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس، نفع بجأه خلقا كثيرا، ولم يزل على مكانته وتوفر حرمة إلى أن توفي يوم الثلاثاء عند طلوع الشمس التاسع من ذي القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائة بالمخيم بمنزلة الخروبة، ثم نقل إلى القدس ودفن بظاهرها رحمه الله تعالى، وكان يلبس زي الأجناد، ويعتم بعائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين، ورأيت أخاه الأمير مجد الدين أبا حفص عمر أيضا على هذه الصفة، والخروبة بفتح الخاء المعجمة وتشديد الراء وضمها وسكون الواو وفتح الباء الموحدة، وبعدها هاء ساكنة، موضع بالقرب من عكا.

وكانت ولادة أخيه مجد الدين عمر في رجب سنة ستين وخمسة،
وتوفي في الثالث والعشرين من ذي الحجة سنة ست وثلاثين وستائة
بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم وحضرت الصلاة عليه رحمه الله تعالى.

سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر صاحب الموصل.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الزاء وأنه قتل على حصار قلعة جعبر، فلما قتل وكان معه ألب أرسلان ابن السلطان محمود المعروف بالخفاجي السلجوقي المذكور في ترجمة عماد الدين زنكي، اجتمع أكابر الدولة وفيهم الوزير جمال الدين محمد الأصبهاني المعروف بالجواد، والقاضي كمال الدين أبو الفضل محمد الشهرزوري، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى، وقصدوا خيمة ألب أرسلان المذكور، وقالوا له: كان عماد الدين زنكي غلامك ونحن غلمانك، والبلاد لك وصمتوا الناس بهذا الكلام، ثم إن العسكر افترق فرقتين، فطائفة منهم توجهت صحبة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى إلى الشام، والطائفة الثانية سارت مع ألب أرسلان وعساكر الموصل وديار ربيعة إلى الموصل، فلما انتهوا إلى سنجار تخيل ألب أرسلان منهم الغدر فتركهم، وهرب فلحقه بعض العسكر وردوه، فلما وصلوا إلى الموصل وصلهم سيف الدين غازي المذكور، وكان مقيماً بشهرزور لأنها كانت إقطاعاً من جهة السلطان مسعود السلجوقي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، فلما استقر بالموصل قبض على ألب أرسلان المذكور، وسيره إلى بعض القلاع وملك الموصل، وما كان لأبيه من ديار ربيعة، وترتبت أحواله، وأخذ أخوه نور الدين محمود وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى حلب وما والاها من بلاد الشام، ولم تكن دمشق يومئذ لهم، وكان غازي المذكور منظوياً على خير وصلاح، يجب العلم وأهله وبني بالموصل مدرسته المعروفة بالعتيقة، ولم تطل مدته في المملكة حتى توفي آخر جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسةائة، وقد قارب من العمر أربعين سنة، ودفن في مدرسته المذكورة رحمه الله تعالى، وتولى بعده أخوه قطب الدين مودود، وسيأتي ذكره في حرف الميم إن شاء الله تعالى.

سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقي سنقر صاحب الموصل.

وهو ابن أخي المذكور قبله، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، وهو والد سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمر، ولما توفي والده في التاريخ الآتي ذكره في ترجمته بلغ الخبر نور الدين وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالبا بلاد الموصل، فوصل إلى الرقة في المحرم سنة ست وستين وخمسة، وملكها، وسار منها إلى نصيبين فملكها في بقية الشهر، وأخذ سنجار في شهر ربيع الآخر منها، ثم قصد الموصل، وقصد أن لا يقاتلها فعبّر بعسكره من مخاضة بلد وهي بلدة بقرب الموصل، وسار حتى خيم قبالة الموصل، وراسل ابن أخيه سيف الدين المذكور وعرفه صحة قصده فصالحه، ودخل الموصل في ثالث عشر جمادى الأولى، وأقر صاحبها فيها، وزوجه ابنته وأعطى أخاه عماد الدين زنكي المذكور في ترجمة جده عماد الدين زنكي سنجار، وخرج من الموصل، وعاد إلى الشام ودخل حلب في شعبان من السنة المذكورة، ولما مات نور الدين، وملك صلاح الدين دمشق ونزل على حلب يحاصرها، سير سيف الدين المذكور جيشا مقدمه أخوه عز الدين مسعود الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، والتقوا عند قرون حماة، وسيأتي تفصيل ذلك هناك، فلما انكسر عز الدين مسعود تجهز سيف الدين بنفسه، وخرج إلى لقائه، وتصافا على تل السلطان وهي قرية بين حلب وحماة، وذلك في بكرة الخميس عاشر شوال سنة إحدى وسبعين وخمسة.

قال العماد الأصبهاني في البرق الشامي، وابن شداد في سيرة صلاح الدين إنه انكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفر الدين بن زين الدين فإنه كان في ميمنة سيف الدين، ثم حمل صلاح الدين بنفسه، فانهزم جيش سيف الدين وعاد إلى حلب، ثم رحل إلى الموصل، ومظفر الدين المذكور هو صاحب إربل، وترجمته في حرف الكاف وأقام غازي في المملكة عشر

سنتين وشهوراً، وأصابه مرض مزمن وتوفي يوم الأحد ثالث صفر سنة
ست وسبعين وخمسة مائة رحمه الله تعالى، وتولى بعده عز الدين مسعود،
وسياتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان مرضه السل، وطال به وعاش
مقدار ثلاثين سنة.

أبو الفتح غازي ويكنى أبا منصور أيضا ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب.

كان ملكا مهيبا حازما متيقظا، كثير الاطلاع على أحوال رعيته، وأخبار الملوك، عالي الهممة حسن التدبير والسياسة باسط العدل، محبا للعلماء مجيزا للشعراء، أعطاه والده مملكة حلب في سنة اثنتين وثمانين وخمسة، بعد أن كانت لعمه الملك العادل، فنزل عنها وتعوض غيرها كما قد شهر، ويحكى عن سرعة ادراكه أشياء حسنة، منها أنه جلس يوما لعرض العسكر، وديوان الجيش بين يديه، وكان كلما حضر أحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه لينزلوه حتى حضر واحد فسأله عن اسمه، فقبل الأرض فلم يفتن أحد من أرباب الديوان لما أراد، فعادوا سؤاله، فقال الملك الظاهر: اسمه غازي، وكان كذلك، وتأدب الجندي أن يذكر اسمه لما كان موافقا لاسم السلطان، وعرف هو مقصوده، وله من هذا الجنس شيء كثير لاحاجة إلى التطويل فيه، وكانت ولادته بالقاهرة في منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسة، وهي السنة الثانية من استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية، وتوفي بقلعة حلب ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمئة، ودفن بالقلعة، ثم بنى الطواشي شهاب الدين طغريل الخادم أتاك ولدته الملك العزيز مدرسته تحت القلعة، وعمر فيها تربة، ونقله إليها رحمه الله تعالى، والعجب أنه دخل حلب مالكا لها في الشهر بعينه، واليوم من سنة اثنتين وثمانين وخمسة، ورثاه شاعره الشرف راجح بن اسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلي، وكنيته أبو الوفاء بهذه القصيدة، ومدح ولديه السلطان الملك العزيز محمدا وأخاه الملك الصالح صاحب عين تاب، وما قصر فيها وهي:

مضى من أقام الناس في ظل عدله

وأمن من خطب تدب عقاربه
فكم من حمى صعب أباحت سيوفه
ومن مستباح قد حتمه كتائبه
أرى اليوم دست الملك أصبح خاليا
أما فيكم من مخبر أين صاحبه
فمن سائل عن سائل الدمع لم جرى
لعل فؤادي بالوجيب يجاوبه
فكم من ندوب في قلوب نضيجة
بنار كرب أجتها نواذبه
أسلم ولم يحطم صدور رماحه
ببذ ولم يثلم بضرب قواضيه
ولا اصطدمت عند الختوف كياته
ولا ازدحمت بين الصفوف جنائبه
ولاسيم أخذ الثار يوم كرميه
يشق مشار النقع فيها سلاهبه
فياملبسي ثوباً من الحزن مسبلاً
أيجسن بي أن التسلي سالبه
خدمتك روض المجد تصفو ظلاله
علي وروض الجود تصفو مشاريبه
وقد كنت تدنيني وترفع مجلسي
لمفروض مدح ماتعدك واجبه
فما بال اذني قد تمادى ولم يكن
إذا جئت يثين عن الباب حاجبه
أرى الشمس أخفت يوم فقدك نورها
فلا كان يوماً كاشف الوجه شاحبه
فكيف نباسيف اعتزامك أو كبا
جواد من الحزم الذي أنت راكبه

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه
بمن علقته أنيابيه ومخالبه
نشدتك عاتبه على نائباته
وإن كان ينأى السمع عمّن يعاتبه
لي الله كم أرمي بطرفي ضالالة
إلى أفق مجد قد ثناوت كواكبه
فما لي أرى الشهباء قد حال صبحها
على دجى لا تستنير غياها به
أحقاهمى الغازي الغياث بن يوسف
أبيح وعادت خائبات مواكبه
نعم كورت شمس المدائح وانطوت
سواء العلاء والنجح ضاقت مذاهبه
فمن مخبري عن ذلك الطود هل وهت
قواعده أم لأن للخطب جانبه
أجل ضعفت بعد الثبات زعزعت
بريح المنايا العاصفات مناكبه
وغيض ذاك البحر من بعد ما طمت
وظمت لغيبان البلاد غواربه
فشلت يمين الخطب أي مهند
برغم العلاء سلت وفلت مضاربه
لئن حبس الغيث الغياثي قطره
فقد سحبت في كل قطر سحائبه
فأنى يلد العيش بعد ابن يوسف
أخو أمل أكدت عليه مطالبه
فلا أدركت نيل المنى طالباته
ولا بركت في أرض يمنن ركائبه
ولا انتجعت إلا بعيس حقيبة
من الجذب لا تشي عليه حقائبه

فمن لليتامى ياغيث ياغيثهم
إذا الغيث لم ينفع صدى العام ساكبه
ومن للموك كنت ظلا عليهم
ظليلا إذا ما الدهر نابت نوائبه
أي تاركي ألقى العدو مسالما
متى ساء في بالجد قمت لأعبه
سقت قبرك الغر الغوادي وجاده
من الغيث ساريه الملت وساربه
فإن يك نور من شهابك قد خبا
في أطالما جلى دجى الليل ثاقبه
فقد لاج بالملك العزيز محمد
صباح هدى كنا زمانا نراقبه
فتى لم يفته من أبيه وجده
إيأ وجد غالباً من يغالبه
ومن كان في المسعى أبوه دليله
تدانى له الشأ والذي هو طالبه
وبالصالح استعلى صلاح الدين رعية
لها منه رعي ليس يقلع راتبه
فحسب الورى من أحمد ومحمد
مليكان من عاداهما ذل جانبه
هما حرزا علياء غازی بن يوسف
وما ضيعا المجد الذي هو كاسبه
فافق الورى لولاها كان أظلمت
مشارقه من بعده ومغاربه
ستحمي على رغم الليالي حماها
عوالي قناتردى الاسود ثعالبه
فكم من ملم جل موقع خطبه
فساءت مبادئه وسرت عواقبه

سنة سبع وعشرين وستمائة، وقصده التتر وملكوا الشام، فخرج من دمشق في صفر سنة ثمان وخمسين وقتل في الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين بالقرب من المراغة من أعمال أذربيجان على ما نقل الناقل، والله أعلم، وقصته مشهورة.

وتوفي عمه الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر صاحب عين تاب في شهر شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة، وكانت ولادته في صفر سنة ستمائة بحلب، ومات بعين تاب رحمهم الله تعالى أجمعين، وإنما قدموا العزيز، وهو الأصغر على أخيه الصالح، لأن أمه ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب، فقدموه في الملك لأجل جده وأخواله أولاد العادل وأما الصالح فلإن أمه جارية، وتوفي الشرف الحلي المذكور في ليلة السابع والعشرين من شعبان سنة سبع وعشرين وستمائة بدمشق، رحمه الله تعالى، ودفن بظاهرها بجوار مسجد النارنج شرقي مصلى العيد، ومولده في منتصف ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة بالحلّة، وهو من مشاهير شعراء عصره.

أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين

كان خادماً صلاح الدين، وقيل خادماً أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، فأعتقه، وقد تقدم ذكره في ترجمة الفقيه عيسى الهكاري، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلاً مسعوداً، وصاحب همة عالية، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، وعمر بالمقس رباطاً على باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل، وله وقف كثير لا يعرف مصرفه، وكان حسن المقاصد جميل النية، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها حصل أسيراً في أيديهم ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار.

وذكر شيخنا القاضي بهاء الدين بن شداد في سيرة صلاح الدين أنه انفك من الأسر في يوم الثلاثاء حادي عشر شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، ومثل في الخدمة الشريفة السلطانية، ففرح به فرحاً شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، واستأذن في المسير إلى دمشق ليحصل مال القطيعة، فأذن له في ذلك، وكان على ما ذكر ثلاثين ألفاً، والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته، حتى أن الأسعد بن مماتي المقدم ذكره له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه، وكانت وفاته في مستهل رجب سنة سبع وتسعين وخمسمائة بالقاهرة، ودفن في تربته المعروفة به بسفح المقطم رحمه الله تعالى بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق.

وقراقوش بفتح القاف والراء، وبعد الألف قاف ثانية ثم واو بعدها
شين معجمة، وهو لفظ تركي تفسيره بالعربي العقاب الطائر المعروف،
وبه سمى الانسان.

أبو سعيد كوكبوري بن أبي الحسن علي بن بكتكين بن محمد الملقب الملك الأعظم مظفر الدين صاحب إربل.

كان والده زين الدين علي المعروف بكجك صاحب إربل، رزق أولادا كثيرة، وكان قصيرا ولهذا قيل له كجك، وهو لفظ عجمي معناه بالعربي صغير، أي صغير القدر، وأصله من التركمان وملك إربل وبلادا كثيرة في تلك النواحي، وفرقها على أولاد أتاك قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل، ولم يبق له سوى إربل، والشرح يطول وعمر طويلا، يقال إنه جاوز مائة سنة، وعمي في آخر عمره، وانقطع بإربل إلى أن توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وخمسة.

وقال ابن شداد في سيرة صلاح الدين: مات في ذي الحجة من السنة، ودفن في تربته المعروفة به المجاورة للجامع العتيق داخل البلد رحمه الله تعالى، وكان موصوفا بالقوة المفرطة والشهامة، وله بالموصل أوقاف كثيرة مشهورة من مدارس وغيرها.

قال شيخنا الحافظ عز الدين أبو الحسن علي المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير، الذي عمله لبني أتاك ملوك الموصل: إن زين الدين المذكور سار عن الموصل إلى إربل سنة ثلاث وستين وخمسة، وسلم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى أتاك قطب الدين، فمن ذلك سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية، وقلاع الهكارية جميعها، وتكريت وشهرزور وغير ذلك، وماترك لنفسه سوى إربل، وكان قد حج هو وأسد الدين شيركوه بن شاذي في سنة خمس وخمسين وخمسة.

ولما توفي ولي موضعه ولده مظفر الدين المذكور، وعمره أربع عشرة سنة، وكان أتاكه مجاهد الدين قايباز المذكور في حرف القاف، فأقام

أخاه زين الدين أبا المظفر يوسف، وكان أصغر منه، ثم أخرج مظفر الدين من البلاد فتوجه إلى بغداد، فلم يحصل له بها مقصود، فانتقل إلى الموصل ومالكها يومئذ سيف الدين غازي بن مودود المقدم ذكره في حرف العين، فاتصل بخدمته وأقطعه مدينة حران فانتقل إليها، وأقام بها مدة.

ثم اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين وحظي عنده، وتمكن منه وزاده في الإقطاع الرهافي سنة ثمان وسبعين وخمسة، وأخذ صلاح الدين الرها من ابن الزعفراني وأعطاه مظفر الدين مع حران، وأخذ الرقة من ابن حسان وأعطاه ابن الزعفراني، والشرح في ذلك يطول، ثم أعطاه سميساط وزوجه أخته الست ربيعة خاتون بنت أيوب، وكانت قبله زوجه سعد الدين مسعود بن معين الدين صاحب قصر معين الدين الذي بالغور، وتوفي سعد الدين المذكور سنة إحدى وثمانين وخمسة، وشهد مظفر الدين مع صلاح الدين مواقف كثيرة، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزة، وثبت في مواضع لم يثبت فيها غيره، على ما تضمنته تواريخ العماد الأصبهاني وبهاء الدين بن شداد وغيرهما وشهرة ذلك تغنى عن الإطالة فيه، ولو لم يكن إلا وقعة حطين لكفته، فإنه وقف هو وتقي الدين صاحب حماة المقدم ذكره، وانكسر العسكر بأسره ثم لما سمعوا بوقوفها تراجعوا حتى كانت النصرة للمسلمين، وفتح الله سبحانه عليهم، ثم لما كان السلطان صلاح الدين منازلًا عكا بعد استيلاء الفرنج عليها، وردت عليه ملوك الشرق تنجده وتخدمه، وكان في جملتهم زين الدين يوسف أخو مظفر الدين، وهو يومئذ صاحب إربل فأقام قليلاً ثم مرض وتوفي في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ست وثمانين وخمسة بالناصرية، وهي قرية بالقرب من عكا، يقال إن المسيح عليه الصلاة والسلام ولد بها على الاختلاف الذي في ذلك، فلما توفي التمس مظفر الدين من السلطان أن ينزل عن حران والرها وسميساط ويعوضه إربل فأجابته إلى ذلك وضم إليه شهرزور، فتوجه

إليها ودخل إربل في ذي الحجة سنة ست وثمانين وخمسة، هذه خلاصة أمره.

وأما سيرته فلقد كان له في فعل الخيرات غرائب لم يسمع أن أحدا فعل في ذلك ما فعله، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة، كان له كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرقها على المحاويع في عدة مواضع من البلد، يجتمع في كل موضع خلق كثير يفرق عليهم في أول النهار، وكان إذ نزل من الركوب يكون قد اجتمع عند الدار جمع كثير فيدخلهم إليه ويدفع لكل واحد كسوة على قدر الفصل من الشتاء والصيف أو غير ذلك، ومع الكسوة شيء من الذهب من الدينار والاثنين والثلاثة، وأقل وأكثر وكان قد بنى أربع خانقاهات للزمنى والعميان وملاها من هذين الصنفين، وقرر لهم ما يحتاجون إليه كل يوم، وكان يأتيهم بنفسه في كل عصرية اثنين وخميس، ويدخل عليهم، ويدخل إلى كل واحد في بيته ويتفقده بشيء من النفقة ويسأله عن حاله، وينتقل إلى الآخر وهكذا حتى يدور على جميعهم، وهو يياسطهم ويمزح معهم ويجبر قلوبهم، وبنى دارا للنساء الأرامل، ودارا للصغار الأيتام، ودار للملاقيط، رتب بها جماعة من المراضع، وكل مولود يلتقط يحمل إليه فيرضعنه وأجرى على أهل كل دار ما يحتاجون إليه في كل يوم، وكان يدخل إليها في كل وقت ويتفقده أحوالهن ويعطينهن النفقات زيادة على المقرر لهن، وكان يدخل إلى البيارستان ويقف على مريض مريض ويسأله عن مبيته وكيفية حاله وما يشتهي، وكان له دار مضيف يدخل إليها كل قادم على البلد من فقيه أو فقير أو غيرهما، وعلى الجملة فما كان يمنع منها كل من قصد الدخول إليها ولهم الراتب في الدار في الغداء والعشاء، وإذا عزم الانسان على السفر أعطوه نفقة على ما يليق بمثله.

وبنى مدرسة رتب فيها فقهاء الفريقين من الشافعية والحنفية، وكان كل وقت يأتيها بنفسه ويعمل السباط بها ويبيت بها، ويعمل السماع،

وإذا طاب خلع شيئاً من ثيابه وسير للجماعة بكرة شيئاً من الإنعام، ولم يكن له لذة سوى السماع، فإنه كان لا يتعاطى المنكر، ولا يمكن من إدخاله إلى البلد، وبنى للصوفية خانقاهين فيها خلق كثير من المقيمين والواردين، ويجتمع في أيام المواسم فيهما من الخلق ما يعجب الإنسان من كثرتهم، ولهما أوقاف كثيرة تقوم بجميع ما يحتاج إليه ذلك الخلق، ولا بد عند سفر كل واحد من نفقة يأخذها، وكان ينزل بنفسه إليهم ويعمل عندهم الساعات في كثير من الأوقات وكان يسير في كل سنة دفعتين جماعة من أمنائه إلى بلاد الساحل، ومعهم جملة مستكثرة من المال يفتك بها أسرى المسلمين من أيدي الكفار، فإذا وصلوا إليه أعطى كل واحد شيئاً وإن لم يصلوا فالأمناء يعطونهم بوصية منه في ذلك، وكان يقيم في كل سنة سبيلاً للحاج، ويسير معه جميع ما تدعو حاجة المسافر إليه في الطريق، ويسير صحبته أمينا معه خمسة أو ستة آلاف دينار ينفقها بالحرمين على المحاويع وأرباب الرواتب، وله بمكة حرسها الله تعالى آثار جميلة، وبعضها باق إلى الآن، وهو أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف، وغرم عليه جملة كثيرة، وعمر بالجبل مصانع للماء، فإن الحاج كانوا يتضررون من عدم الماء، وبنى له تربة أيضا هناك.

وأما احتفاله بمولد النبي صلى الله عليه وسلم فإن الوصف يقصر عن الإحاطة به، لكن نذكر طرفا منه، وهو أن أهل البلاد كانوا قد سمعوا بحسن اعتقاده فيه، فكان في كل سنة يصل إليه من البلاد القريبة من إربل مثل بغداد، والموصل، والجزيرة، وسنجار، ونصيبين، وبلاد العجم وتلك النواحي خلق كثير من الفقهاء والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء، ولا يزالون يتواصلون من المحرم إلى أوائل شهر ربيع الأول، ويتقدم مظفر الدين بنصب قباب من الخشب، كل قبة، أربع أو خمس طبقات، ويعمل مقدار عشرين قبة، وأكثر منها قبة له والباقي للأمراء وأعيان دولته لكل واحد قبة فإذا كان أول صفر زينوا تلك القباب بأنواع الزينة الفاخرة المتجملة، وقعد في كل قبة جوق من الأغاني وجوق من

أرباب الخيال ومن أصحاب الملاهي، ولم يتركوا طبقة من تلك الطباق حتى رتبوا فيها جوقا، وتبطل معايش الناس في تلك المدة، وما يبقى لهم شغل إلا التفرج والدوران عليهم، وكانت القباب منصوبة من باب القلعة إلى باب الخانقاه المجاورة للميدان، فكان مظفر الدين ينزل كل يوم بعد صلاة العصر، ويقف على قبة قبة إلى آخرها، ويسمع غناءهم، ويتفرج على خيالاتهم وما يفعلونه في القباب، ويبست في الخانقاه ويعمل السماع فيها، ويركب عقيب صلاة الصبح يتصيد، ثم يرجع إلى القلعة قبل الظهر، هكذا يعمل كل يوم إلى ليلة المولد، وكان يعمل سنة في ثامن الشهر، وسنة في ثاني عشره لأجل الاختلاف الذي فيه، فإذا كان قبل المولد بيومين أخرج من الإبل والبقر والغنم شيئا كثيرا زائدا عن الوصف، وزفها بجمع ما عنده من الطبول والأغاني والملاهي حتى يأتي بها إلى الميدان، ثم يسرعون في نحرها، وينصبون القدور ويطبخون الألوان المختلفة، فإذا كانت ليلة المولد عمل الساعات، بعد أن يصلى المغرب في القلعة، ثم ينزل وبين يديه من الشموع المشتعلة شيء كثير، وفي جملتها شمعتان أو أربع أشك في ذلك، من الشموع الموكبية التي تحمل كل واحدة منها على بغل، ومن ورائها رجل يسندها وهي مربوطة على ظهر البغل حتى ينتهي إلى الخانقاه، فإذا كان صبيحة يوم المولد أنزل الخلع من القلعة إلى الخانقاه على أيدي الصوفية، على يد كل شخص منهم بقجة، وهم متتابعون كل واحد وراء الآخر، فينزل من ذلك شيء كثير لأتمقق عدده، ثم ينزل إلى الخانقاه وتجتمع الأعيان والرؤساء وطائفة كبيرة من بياض الناس، وينصب كرسي للوعاظ، وقد نصب لمظفر الدين برج خشب له شبابيك إلى الموضع الذي فيه الناس، والكرسي وشبابيك آخر للبرج أيضا إلى الميدان، وهو ميدان كبير في غاية الاتساع ويجتمع فيه الجند ويعرضهم ذلك النهار، وهو تارة ينظر إلى عرض الجند، وتارة إلى الناس والوعاظ، ولا يزال كذلك حتى يفرغ الجند من عرضهم، فعند ذلك يقدم السباط في الميدان للصعاليك، ويكون

سباطا عاما فيه من الطعام والخبز شيء كثير لا يحمد ولا يوصف، ويمد سباطا ثانيا في الخانقاه للناس المجتمعين عند الكرسي، وفي مدة العرض ووعظ الوعاظ يطلب واحدا واحدا من الأعيان والرؤساء والوافدين لأجل هذا الموسم ممن قدمنا ذكره من الفقهاء والوعاظ والقراء والشعراء، ويخلع على كل واحد منهم، ثم يعود إلى مكانه، فإذا تكامل ذلك كله حضروا السباط وحملوا منه لمن يقع التعيين على الحمل إلى داره، ولا يزالون على ذلك إلى العصر أو بعدها، ثم يبيت تلك الليلة هناك، ويعمل الساعات إلى بكرة، هكذا دأبه في كل سنة، وقد لخصت صورة الحال فإن الاستقصاء يطول، فإذا فرغوا من هذا الموسم تجهز كل إنسان للعود إلى بلده، فيدفع لكل شخص شيئا من النفقة، وقد ذكرت في ترجمة الحافظ أبي الخطاب بن دحية، في حرف العين وصوله إلى إربل وعمله لكتاب «التنوير في مولد السراج المنير» لما رأى من اهتمام مظفر الدين به، وأنه أعطاه ألف دينار غير ما غرم عليه مدة إقامته من الإقامات الوافرة، وكان رحمه الله متى أكل شيئا واستطابه لا يختص به بل كان إذا أكل من زبدية لقمة طيبة قال لبعض من بين يديه من أجناده: احمل هذا إلى الشيخ فلان أو فلانة ممن هم عنده مشهورون بالصلاح، وكذلك يعمل في الحلوى والفاكهة وغير ذلك من المطاعم والمشارب والكساء، وكان كريم الأخلاق كثير التواضع حسن العقيدة، سالم البطانة، شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة، لا ينفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء والمحدثين، ومن عداهما لا يعطيه شيئا إلا تكلفا، وكذلك الشعراء لا يقول بهم ولا يعطيهم إلا إذا قصدوه، فما كان يضيع قصدهم ولا ينجيب أمل من يطلب بره، وكان يميل إلى علم التاريخ وعلى خاطره منه شيء يذاكر به، ولم يزل رحمه الله تعالى مؤيدا في مواقفه ومصافاته مع كثرتها، لم ينقل أنه انكسر في مصاف قط ولو استقصيت في تعداد محاسنه لطال الكتاب وفي شهرة معروفة غنية عن الإطالة، وليعذر الواقف على هذه الترجمة، ففيها تطويل، ولم يكن سببه إلا ماله علينا من الحقوق التي لا نقدر على القيام

بشكر بعضها، ولو عملنا مهما عملناه، وشكر المنعم واجب فجزاه الله عنا أحسن الجزاء، فكم له علينا من الأيادي ولأسلافه على أسلافنا من الإنعام، والانسان صنيعه الإحسان، ومع الإعتراف بجميله فلم أذكر عنه شيئا على سبيل المبالغة بل كل ماذكرته عن مشاهدة وعيان، وربما حذفت بعضه طلبا للإيجاز، وكانت ولادته بقلعة الموصل ليلة الثلاثاء السابعة والعشرين من المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي وقت الظهر يوم الأربعاء ثامن عشر شهر رمضان سنة ثلاثين وستمائة بداره في البلدة التي كانت لمملوكه شهاب الدين قراجا فلما قبض عليه في سنة أربع عشرة وستمائة أخذها وصار يسكنها بعض الأوقات فمات بها، ثم نقل إلى قلعة إربل ودفن بها، ثم حمل بوصية منه إلى مكة شرفها الله تعالى وكان قد أعد له بها قبة تحت الجبل في ذيله يدفن فيها، وقد سبق ذكرها، فلما توجه الركب إلى الحجاز سنة إحدى وثلاثين سيروه في الصحبة، فاتفق أن رجع الحاج تلك السنة من لينة ولم يصلوا إلى مكة، فردوه ودفنوه بالكوفة بالقرب من المشهد رحمه الله تعالى، وعوضه خيرا وتقبل مباره، وأحسن منقلبه.

وأما زوجته ربيعة خاتون بنت أيوب فإنها توفيت في شعبان سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وغالب ظني أنها جاوزت ثمانين سنة، ودفنت في مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون، وكانت وفاتها بدمشق، وأدركت من محارمها من الملوك من أخوتها وأولادهم أكثر من خمسين رجلا، غير محارمها من غير الملوك ولولا خوف الإطالة لذكرتهم مفصلا، فإن إربل كانت لزوجها المذكور، والموصل لأولاد بنتها، وخلاط وتلك الناحية لابن أخيها، وبلاد الجزيرة الفراتية للأشرف ابن أخيها، وبلاد الشام لأولاد أخوتها، والديار المصرية والحجاز واليمن لأخوتها وأولادهم، ومن تأمل ذلك عرف الجميع.

وكوكبوري بضم الكافين بينها واوا ساكنه، ثم باء موحدة مضمومة، ثم

واوا ساكنة، وبعدها راء، وهو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق، وبكتيكين بضم الباء الموحدة وسكون الكاف، وكسر التاء المثناة من فوقها، والكاف، وسكون الياء المثناة من تحتها، وبعدها نون، هو اسم تركي أيضا، ولينة بكسر اللام وسكون الياء المثناة من تحتها، وفتح النون وبعدها هاء ساكنة، منزلة في طريق الحجاز من جهة العراق، وكان الركب في تلك السنة قد رجع منها لعدم الماء، وقاسوا مشقة عظيمة.

أبو بكر محمد بن أبي الشكر أيوب بن شادي بن مروان الملقب بالملك العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى.

وقد تقدم ذكر والده في حرف الهمزة، وسيأتي ذكر أخيه صلاح الدين في حرف الياء إن شاء الله تعالى، وكان الملك العادل قد وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه المقدم ذكره، وكان يقول لما عزمنا على المسير إلى مصر احتجت إلى جرمدان^(١) فطلبته من والدي فأعطاني، وقال: يا أبا بكر إذا ملكتم مصر أعطني ملاء ذهباً، فلما جاء إلى مصر قال: يا أبا بكر أين الجرمدان؟ فرحت وملاؤه من الدراهم السود وجعلت أعلاها شيئاً من الذهب وأحضرتة إليه، فلما رآه اعتقده ذهباً فقلبه فظهرت الفضة السوداء، فقال: يا أبا بكر تعلمت زغل المصريين.

ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه في حال غيبته في الشام، ويستدعى منه الأموال للانفاق في الجند وغيرهم، ورأيت في بعض رسائل القاضي الفاضل أن الحمول تأخرت مدة، فتقدم السلطان إلى العماد الأصبهاني أن يكتب إلى أخيه الملك العادل يستحثه على إنفاذها حتى قال: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فلما وصل الكتاب إليه ووقف على هذا الفصل شق عليه وكتب إلى القاضي الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك، فكتب القاضي الفاضل جوابه وفي جملته: «وأما ما ذكره المولى من قوله يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة مالمقصود بها من الملك النجعة وإنما المقصود بها من الكتابب السجعة، وكم من لفظة فظة، وكلمة فيها غلظة حيرت عي الأقلام، وفسدت خلل الكلام، وعلى المملوك الضمان في هذه النكتة، وقد فات لسان القلم منها أي سكتة، وكان المملوك حاضراً وقد جرت قوارع الاستحاث، وصرصر البازي، وقوت نفس العماد قوة نفس البغاث والسلام».

ولما ملك السلطان مدينة حلب في صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة كما تقدم في ترجمة عماد الدين زنكي أعطاها لولده الملك الظاهر غازي، ثم أخذها منه وأعطاها للملك العادل، فانتقل إليها وقصد قلعها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة ثم نزل عنها للملك الظاهر غازي ابن السلطان المقدم ذكره لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين وخرج منها في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول، ثم أعطاها السلطان قلعة الكرك، وتنقل في الممالك في حياة السلطان وبعد وفاته وقضاياه مشهورة مع الملك الأفضل، والملك العزيز، والملك الظاهر، فلا حاجة إلى الإطالة بشرحها، وآخر الأمر أنه استقل بمملكة الديار المصرية، وكان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة، واستقرت له القواعد.

وقال أبو البركات بن المستوفي في تاريخ إربل في ترجمة ضياء الدين أبي الفتح نصر الله المعروف بابن الأثير الوزير الجزري مأمثاله: «وجدت بخطه خطب للملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة ومصر يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة، وخطب له بحلب يوم الجمعة حادي عشر جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وملك معها البلاد الشامية والشرقية، وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستمائة، وسير إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المعروف بأطسيس ابن الملك الكامل الآتي ذكره إن شاء الله تعالى، وكان ولده الملك الأوحى نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميفارقين وتلك النواحي، فاستولى على مدينة خلاط وبلاد أرمينية، واتسعت مملكته وذلك في سنة أربع وستمائة، ولما تمهدت البلاد له قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل الديار المصرية، والملك المعظم البلاد الشامية، والملك الأشرف البلاد المشرقية، والأوحد في البلاد التي ذكرناها، وكان ملكا عظيما ذا رأي ومعرفة تامة

قد حنكته التجارب، حسن السيرة، وجميل الطوية، واف العقل، حازما في الأمور، صالحا محافظا على الصلوات في أوقاتها متبعا لأرباب السبنة مائلا الى العلماء حتى صنف له فخر الدين الزازي كتاب «تأسيس التقديس» وذكر اسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خراسان، وبالجملة فإنه كان رجلا مسعودا، ومن سعادته أنه خلف أولادا لم يخلف أحدا من الملوك أمثالهم في نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو همتهم، ودانت لهم العباد، وملكوا أخيار البلاد، ولما مدح ابن عنين المقدم ذكره الملك العادل بقصيدته الرائية المذكور بعضها في ترجمته جاء منها في مديح أولاده المذكورين قوله:

وله البنون بكل أرض منهم
ملك يقود إلى الأعادي عسكرا
من كل وضاح الجبين تحاله
بدر وإن شهد الوغى فغضنفرا
متقدم حتى إذا النقع انجلى
بالبيض عن سبي الحریم تأخرا
قوم زكوا أصلا وطابوا محتدا
وتدفقوا جودا وراقوا منظرا
وتعاف خيلهم الورد بمنهل
ما لم يكن بدم الوقائع أحمرا
يعشوا إلى نار الوغى شغفأبها
ويجل أن يعشوا إلى نار القرى

وكم للشعراء فيهم من القصائد المختارة لكن ذكرت هذه لكونها جامعة لجميعهم ومن جملة هذه القصيدة مدح الملك العادل قوله ولقد أحسن فيه:

العادل الملك الذي أسماؤه
في كل ناحية تشرف منبرا

وبكل أرض جنة من عدله الـ
— ضافي أسال نداه فيها كوثرا
عدل يبيت الذئب منه على الطوى
غرثان وهو يرى الغزال الأعفرا
مافي أبي بكر لمعتق دالهدى
شك مريب أنه خير الورى
سيف صقال المجد أخلص متنه
وأبان طيب الأصل منه الجوهر
مامدحه بالمستعار له ولا
آيات سؤدده حديث يفترى
بين الملوك الغابرين وبينه
في الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى
في الكتب عن كسرى الملوك وقيصرا
ملك اذا خفت حلوم ذوي النهى
في الروع زاد رصانة وتوقرا
ثبت الجنان ترع من وثباته
وثباته يوم الوغى اسد الشرى
يقظيكا ديقول عما في غد
بيديه اغتته أنه يتفكرا
حلوم تخف له الحلوم وراءه
رأي وعزم يحقرا الاسكندرا
يعفو عن الذئب العظيم تكرما
ويصد عن قول الخنى متكبرا
لا تسع من حديث ملك غيره
يروى فكل الصيد في جوف الفرا (٢)

وبالجملة فإنها من القصائد المختارة، ولما قسم البلاد بين أولاده، كان يتردد بينهم وينتقل إليهم من مملكة إلى أخرى، وكان بالغالب يصيف

بالشام لأجل الفواكة والثلج والمياة الباردة، ويشتهي في الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد، وعاش في أرغد عيش، وكان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد حتى يقال إنه يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا، وكان له في النكاح نصيب وافر، وحاصل الأمر أنه كان ممتعا في دنياه، وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين، وقيل ثمان وثلاثين وخمسةائة، وتوفي في سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة بعالمقين ونقل إلى دمشق، ودفن بالقلعة ثاني يوم وفاته ثم نقل إلى مدرسته المعروفة به. ودفن في التربة التي بها، وقبره على الطريق يراه المجتاز من الشباك المركب هناك رحمه الله تعالى.

وعالمقين بفتح العين المهملة، وبعد الألف لام مكسورة وقاف مكسورة أيضا وياء مثناة من تحتها ساكنة وبعدها نون، وهي قرية بظاهر دمشق، وكان ذلك عند وصول الفرنج إلى ساحل الشام، وقصدوا أولا لقاء الملك العادل فتوجه قدامه إلى جهة دمشق ليتجهز ويتأهب إلى لقاءهم، فلما وصل إلى الموضع المذكور توفي به، فحينئذ أعرض جميع الفرنج عن الشام وقصدوا الديار المصرية فكانت وقعة دمياط المشهورة في ذلك التاريخ وتاريخها مضبوط في ترجمة يحيى بن منصور المعروف بابن جراح في حرف الياء، وأطسيس بفتح الهمزة وسكون الطاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها ياء مثناة من تحتها، ثم سين ثانية، وهي كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم، ويقال إنها سمي بذلك لأن الملك الكامل ماكان يعيش له ولد، فلما ولد له المسعود المذكور قال بعض الحاضرين في مجلسه من الأتراك: في بلادنا إذا كان الرجل لايعيش له ولد سماه أطسيس، فسماه أطسيس، والناس يقولون أقسيس بالقاف وصوابه بالطاء كذا قالوا والله أعلم، ثم ظفرت بتاريخ تسليم حلب محررا وهو أن عماد الدين زنكي نزل من قلعتها يوم الخميس الثاني والعشرين من صفر، وصعد صلاح الدين إليها يوم الاثنين السادس والعشرين من صفر المذكور، والله أعلم.

أبو المعالي محمد ابن الملك العادل المذكور الملقب بالملك الكامل ناصر الدين

قد سبق في ترجمة والده طرف من خبره، ولما وصل الفرنج إلى دمياط كما تقدم ذكره كان الملك الكامل في مبدأ استقلاله بالسلطنة، وكان عنده جماعة كثيرة من أكابر الأمراء وفيهم عماد الدين أحمد بن المشطوب المذكور في حرف الهمزة، فاتفقوا مع أخيه الملك الفائز سابق الدين ابراهيم ابن الملك العادل، وانضموا إليه وظهر للملك الكامل منهم أمور تدل على أنهم عازمون على تفويض السلطنة إليه وخلع الملك الكامل واشتهر ذلك بين الناس، وكان الملك الكامل يداريهم لكونه في قبالة العدو، ولا يمكنه المناظرة والمنافرة وطول روحه معهم ولم يزل على ذلك حتى وصل إليه أخوه الملك المعظم صاحب دمشق المذكور في حرف العين يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة سنة خمس عشرة وستائة، فأطلعته الملك الكامل في الباطن على صورة الحال وأن رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاءه يوما على غفلة إلى خيمته واستدعاه فخرج إليه، فقال له: أريد أن أتحدث معك سرا في خلوة، فركب فرسه وصار معه وهو جريدة وقد جرد المعظم جماعة ممن يعتمد عليهم ويثق إليهم، وقال لهم: اتبعونا ولم يزل المعظم يشاغله بالحديث ويخرج معه من شيء إلى شيء حتى أبعده عن المخيم، ثم قال له: ياعماد الدين هذه البلاد لك ونشتهي أن تهبها لنا، ثم أعطاه شيئا من النفقة وقال لأولئك المجردين: تسلموه حتى تخرجوه من الرمل، فلم يسعه، إلا امتثال الأمر لانفراده وعدم القدرة على الممانعة في تلك الحال، ثم عاد المعظم إلى أخيه الكامل وعرفه صورة ماجرى، ثم جهز أخاه الملك الفائز المذكور إلى الموصل لاجتماع النجدة منها ومن بلاد الشرق فمات بسنجار، وكان ذلك خديعة لإخراجه من البلاد، فلما خرج هذان الشخصان من العسكر تحللت عزائم من بقي من الأمراء الموافقين لهما ودخلوا في طاعة الملك الكامل كرها لاطوعا، وجرى في قضية دمياط ما هو مشهور، فلا حاجة

إلى الإطالة بذكره، ولما ملك الفرنج دمياط وصارت في قبضتهم خرجوا منها قاصدين القاهرة ومصر، ونزلوا في رأس الجزيرة التي دمياط في برها، وكان المسلمون قبالتهم في القرية المعروفة بالمنصورة، والبحر حائل بينهم وهو بحر أشمووم، ونصر الله سبحانه وتعالى بمنه وجميل لطفه المسلمين عليهم كما هو مشهود، وجلا الفرنج عن منزلهم ليلة الجمعة سابع شهر رجب سنة ثمان عشرة وستائة، وتم الصلح بينهم وبين المسلمين في حادي عشر الشهر المذكور، ورحل الفرنج عن البلاد في شعبان من السنة المذكورة، وكانت مدة إقامتهم في بلاد الاسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهرا وأربعة عشر يوما، وكفى الله شرهم والحمد لله على ذلك، وقد فصلت ذلك في ترجمة يحيى بن جراح فيكشف هناك، فلما استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدو تفرغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد وبدد شملهم وشردهم، ودخل إلى القاهرة وشرع في عمارة البلاد واستخراج الأموال من جهاتها، وكان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبا للعلماء، متمسكا بالسنة النبوية حسن الاعتقاد معاشر الأرباب الفضائل حازما في أموره لا يضع الشيء إلا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار، وكان يبيت عنده كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء ويشاركهم في مباحثاتهم، ويسألهم عن المواضع المشككة من كل فن وهو معهم كواحد منهم، وكان يعجبه هذان البيتان وينشدهما كثيرا وهما:

ماكنت من قبل ملك قلبي

تصد عن مدنف حزين

وإنما قد طعمت لما

حللت في موضع حصين

وبنى بالقاهرة دار حديث، ورتب لها وقفا جيدا، وكان قد بنى على ضريح الإمام الشافعي رضي الله عنه قبة عظيمة، ودفن أمه عنده وأجرى إليها الماء من النيل ومدده بعيدا، وأنفق على ذلك مالا عظيما، ولما مات

أخوه الملك المعظم صاحب الشام في التاريخ المذكور في ترجمته، وقام الملك الناصر صلاح الدين داود مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصرية قاصداً أخذ دمشق منه، وجاءه أخوه الملك الأشرف مظفر الدين موسى الآتي ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى، فاجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول جرت يطول شرحها، وملك دمشق في أول شعبان سنة ست وعشرين وستمائة، وكان يوم الاثنين، فلما ملكها دفعها إلى أخيه الملك الأشرف وأخذ عوضها من بلاد الشرق: حران، والرها، وسروج، والرقّة، ورأس عين، وتوجه إليها بنفسه في تاسع شهر رمضان المعظم من السنة، واجتزت بحران في شوال سنة ست وعشرين وستمائة والملك الكامل مقيم بها بعسكر الديار المصرية، وجلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصر خلاط، وكانت لأخيه الملك الأشرف، ثم رجع إلى الديار المصرية ثم تجهز في جيش عظيم وقصد آمد في سنة تسع وعشرين وستمائة فأخذها مع حصن كيفا وتلك البلاد من الملك المسعود ركن الدين مودود ابن الملك الصالح أبي الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقمان، ويقال سقمان بن أرتق، وقد تقدم ذكر جدتهم أرتق.

أخبرني بعض أهل آمد ممن عنده معرفة أن آمد انبرم أمرها وتسلمها الملك الكامل في تاسع عشر ذي الحجة من السنة المذكورة، ودخلها ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب في العشرين من الشهر المذكور، ودخلها الكامل في مستهل المحرم سنة ثلاثين وستمائة، ولما مات الملك الأشرف في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في ترجمته جعل ولي عهده أخاه الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل، فقصده الملك الكامل وانتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما وذلك في التاسع من جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة، وأبقى له بعلبك وأعمالها وبصرى وأرض السواد وتلك البلاد، ولما ملك البلاد الشرقية وآمد وتلك النواحي استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أبا المظفر أيوب،

واستخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصرية وقد تقدم في ترجمة الملك العادل أنه سير الملك المسعود إلى اليمن وكان أكبر أولاد الملك الكامل، وملك الملك المسعود مكة حرسها الله تعالى وبلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، وكان رحيل الملك المسعود عن الديار المصرية متوجها إلى اليمن يوم الاثنين سابع عشر رمضان المعظم سنة إحدى عشرة وستائة، ودخل مكة شرفها الله تعالى في الثالث من ذي القعدة من السنة، وخطب له بها وحج ودخل زيد وملكها مستهل المحرم سنة اثنتي عشرة، ثم ملك مكة شرفها الله تعالى في ربيع الآخر من سنة عشرين وستائة أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسني، واتسعت المملكة للملك الكامل، ولقد حكى لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى أنه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: «مالك مكة وعبيدها واليمن وزبيدها، ومصر وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين» وبالجملة فقد خرجنا عن المقصود، ولقد رأيت بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستائة عند رجوعه من بلاد الشرق واستنقاذه إياها من يد علاء الدين كيقباز بن كيخسرو بن قلعج أرسلان ابن مسعود بن قلعج أرسلان بن سليمان بن قتلмыш بن اسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقي صاحب الروم، وهي وقعة مشهورة يطول شرحها، في خدمته يومئذ بضعة عشر ملكا منهم أخوه الملك الأشرف، ولم يزل في علو شأنه وعظم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق ولم يركب، وكان ينشد في مرضه كثيرا:

يـاـخـلـيـلـيـ خـبـرـانـيـ بـصـدق

كـيـفـ طـعـمـ الكـرـيـ فـإـنـيـ نـسـيـت

ولم يزل كذلك إلى أن توفي يوم الأربعاء بعد العصر، ودفن في القلعة بدمشق يوم الخميس الثاني والعشرين من رجب سنة خمس وثلاثين

وستماته، وكنت بدمشق يومئذ، وحضرت الصبحة يوم السبت في جامع دمشق لأنهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلما حضرت الصلاة قام بعض الدعاة على العريش الذي بين يدي المنبر وترحم على الملك الكامل، ودعا لولده الملك العادل صاحب مصر، وكنت حاضرا في ذلك الموضع فضج الناس ضجة واحدة، وكانوا قد أحسوا بذلك، لكنهم لم يتحققوه إلا ذلك اليوم، وترتب ابن أخيه الملك الجواد مظفر الدين يونس بن شمس الدين مودود ابن الملك العادل في نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل ابن الملك الكامل صاحب مصر، باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق، ثم بني له تربة مجاورة للجامع ولها شباك إلى الجامع ونقل إليها وكانت ولادته في سنة ست وسبعين وخمسة في الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول كذا وجدته بخط من يعتني بالتاريخ، والله أعلم.

وتوفي ولده الملك المسعود بمكة شرفها الله تعالى في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستماته، ومولده في سنة تسع وتسعين وخمسة، وكان بمكة رجل من المجاورين يقال له الشيخ صديق بن بدر بن جناح، من أكراد بلد إربل، وكان من كبار الصالحين، فلما حضرت الملك المسعود الوفاة أوصى أنه إذا مات لا يجهز بشيء من ماله بل يسلم إلى الشيخ صديق يجهزه من عنده بما يراه، فلما مات تولى الشيخ صديق أمره وكفنه في إزار كان يحرم فيه بالحج والعمرة سنين عديدة، وجهزه تجهيز الفقراء على حسب قدرته، وكان أوصى أنه لا يبني عليه قبة بل يدفن في جانب المعلى جبانه مكة شرفها الله تعالى، ويكتب على قبره هذا قبر الفقير إلى رحمة الله تعالى أطسيس بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب، ففعل به ذلك ثم أن عتيقه الصارم قايماز المسعودي الذي تولى القاهرة بعد ذلك بنى عليه قبة.

ولما بلغ الملك الكامل مافعله الشيخ صديق كتب إليه وشكره، فقال:

ما فعلت ما أستحق به الشكر، فإن هذا رجل سألني القيام بأمره فساعدته بما يجب على كل أحد القيام به من موارد الميث، فقيل له: تكتب جواب الملك الكامل فقال: ليس لي إليه حاجة، وكان قد سأله أن يسأله حوائجه كلها فما رد له جوابا، أخبرني بذلك كله من كان حاضرا ويعرف ما يقول، والله أعلم.

وأما ولده الملك العادل فإنه أقام في المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذي الحجة سنة تسع وثلاثين وستمائة، فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبس وطلبوا أخاه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان الصالح قد صالح الملك الجواد على أن أعطاه دمشق، وعوضه عنها سنجار وعانه، وقدم الصالح دمشق متملكا لها في مستهل جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم إن عمه الملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بعلبك اتفق مع الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أخذ دمشق اغتياالا، وكان الملك الصالح نجم الدين قد خرج منها قاصدا الديار المصرية ليأخذها من أخيه الملك العادل، فلما استقر بنابلس وأقام بها مدة جرت هذه الكائنة في سنة سبع وثلاثين وستمائة يوم الثلاثاء السابع والعشرين من صفر، فهجما دمشق بعساكرهما وأخذها وهي قضية مشهورة، فلما أخذوا دمشق رجعت العساكر التي كانت مع الصالح نجم الدين إليها ليدرك كل واحد منهم أهله وبنيه، وتركوا الملك الصالح بنابلس وحيدا في نفر قليل من غلمان وأتباعه، فجاءه الملك الناصر ابن الملك المعظم صاحب الكرك وقبض عليه ليلة السبت الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة، وأرسله إلى الكرك واعتقله بها، ثم إنه أفرج عنه في ليلة السبت السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم من السنة المذكورة، وشرح ذلك يطول، واجتمع هو والملك الناصر على نابلس، فلما قبض الملك العادل في التاريخ المذكور، طلب الأمراء الملك الصالح نجم الدين أيوب فجاءهم ومعه الملك الناصر صاحب الكرك، ودخلا القاهرة في

الساعة الثانية من يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة، وكنت إذ ذاك بالقاهرة، وأدخل أخاه الملك العادل في محفة وحوله جماعة كثيرة من الأجناد يحفظونه، وحمله من خارج البلد إلى القلعة واعتقله عنده في داخل الدار السلطانية، وبسط العدل في الرعية، وأحسن إلى الناس، وأخرج الصدقات ورسم ما تهدم من المساجد، وسيرته طويلة، ثم إنه أخذ دمشق من عمه الملك الصالح في يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعين وستمائة، وأبقى عليه بعلبك، ومضى بعد ذلك إلى الشام في سنة ست وأربعين بعد أن كان عاد إلى مصر، ودخل دمشق في أوائل شعبان من السنة، وسير العساكر لحصار حمص، وقد كان الملك الناصر صاحب حلب أخذها من صاحبها الأشرف ابن صاحب حمص، ثم رجع في أوائل سنة سبع وأربعين وهو مريض، وقصد الفرنج دمياط وهو مقيم بأشموم ينتظر وصولهم، وكان وصولهم إليها يوم الجمعة العشرين من صفر سنة سبع وأربعين وستمائة، وملكوا بر الجزيرة يوم السبت، وملكوا دمياط يوم الجمعة ثلاثة أيام متوالية لأن العسكر وجميع أهلها تركوها وهربوا منها، وانتقل الملك الصالح من أشموم إلى المنصورة ونزل بها وهو في غاية المرض، وأقام بها على تلك الحال إلى أن توفي هناك ليلة الاثنين نصف شعبان من السنة المذكورة، وحمل إلى القلعة الجديدة التي في الجزيرة، وترك بها في مسجد هناك، وأخفي موته مقدار ثلاثة أشهر والخطبة باسمه إلى أن وصل ولده الملك توران شاه من حصن كيفا على البرية إلى المنصورة فعند ذلك أظهروا موته، وخطب لولده المذكور، ثم بعد ذلك بني له بالقاهرة إلى جنب مدارس تربة ونقل إليها في رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة.

وكانت ولادته في الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستمائة هكذا وجدته بخط ابنه مكتوبا، ورأيت في مكان آخر أنه ولد في ليلة الخميس الخامس عشر من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وفي

مكان آخر أنه ولد في الرابع من المحرم سنة أربع وستائة، والله تعالى أعلم، وأمه جارية مولدة سمراء اسمها ورد المنى رحمه الله تعالى.

وكانت ولادة الملك العادل في ذي الحجة سنة سبع عشرة وستائة بالمنصورة، ووالده في قبالة العدو على دمياط، وتوفي في الاعتقال يوم الاثنين ثاني عشر شوال سنة خمس وأربعين وستائة بقلعة القاهرة، ودفن في تربة شمس الدولة خارج باب النصر رحمه الله تعالى.

هذه الفصول ذكرت خلاصتها، ولو فصلتها لطال الشرح، والمقصود الاختصار، وطلب الإيجاز مع أني كنت حاضرا أكثر وقائعها.

وكان للملك العادل ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيما بالقلعة، فلما وصل ابن عمه الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة سيره من هناك، ونقله إلى قلعة الشوبك، فلما جرت الكائنة على المعظم أحضر متسلم قلعة الكرك الملك المغيث من الشوبك وسلم إليه الكرك والشوبك وتلك النواحي، وهو الآن ملكها، ولم يزل مالكةا إلى سنة إحدى وستين وستائة، فنزل الملك الظاهر ركن الدين بيبرس المذكور في ترجمة القاضي مجلي صاحب كتاب الذخائر بالغور، وراسله وبذل له من تسليم البلد بدلا وحلف له، ويقال إنه ورى في اليمين ولم يستقض فيها فنزل إليه إلى منزله بالطور من الغور فقبض عليه ساعة وصوله وجهزه إلى قلعة الجبل بمصر، واعتقله بها، وكان للمغيث ولد ينعت بالعزیز فخر الدين عثمان صغير السن، فأمره الملك الظاهر ولم يزل في خدمته أميرا إلى أن فتح أنطاكية في شهر رمضان سنة ست وستين وستائة، وتوجه من الشام بعد ذلك إلى مصر، فلما دخل إليها قبض عليه واعتقله وهو الآن معتقل بقلعة الجبل المذكورة، وهذه قلعة الكرك هي المذكورة في ترجمة القاضي المجلي أيضا، وكان الملك الظاهر يخاف على أولاده فكان يباليخ في تحصين القلعة المذكورة، ويملؤها بالذخائر ووجدها عوناً له على زمانه، ولما توفي

الملك السعيد ابن الملك الظاهر في الكرك كما ذكرنا في الترجمة المذكورة ملكها بعده أخوه الملك المسعود نجم الدين خضر ابن الملك الظاهر باتفاق ممن كان بها من ممالك أبيه، ومن أمرائه، وهو الآن متملكها مقيم بها، ثم نزل بالأمان بعد حصاره فيها في مدة الأمير حسام الدين طربطر المنصوري كان نائب المملكة، وتقدم العساكر ونزل معه أخوه الملك العادل سلامش بعد أخيه الملك السعيد، وتوجه إلى الديار المصرية إلى خدمة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي المذكور في ترجمة القاضي مجلي في أوائل هذا الحرف، فأحسن السلطان إليهما، وجعل الملك خضرا وأخاه سلامش أميرين، وأقطعهما الاقطاعات الجيدة، وأسكنهما بقلعة الجبل المنصورة واستمر الأمر على ذلك وهما مختلطان به في جملة أهله ملازمان للركوب مع ولديه السلطان الملك الصالح علاء الدين والملك الأشرف صلاح الدين خليل، ولم يزل الأمر كذلك إلى سنة ثمان وثمانين وستمائة فجرى من الأمر ما اقتضى الحال معه القبض على الأميرين: نجم الدين خضر وبدر الدين سلامش المذكورين واعتقالهما بقلعة الجبل، والملك الصالح الملك المنصور المذكور فإنه كان ولي عهد أبيه وكان حازما شديد الرأي وتوفي في حياة والده في شهر شعبان سنة سبع وثمانين وستمائة، ثم إن والده جعل ولاية العهد إلى ولده الملك الأشرف المذكور، وقلده الملك في شهر شوال سنة سبع وثمانين المذكورة، وهو من الملوك المشهورين بعلو الهمة والسعادة والحزم، وتوفي الملك المنصور قلاوون في يوم السبت من شهر ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة في دهليزه بمسجد التين، وكان قد خرج على نية الغزاة إلى عكا فعرض له مرض فقضى به نحوه، وعادت العساكر إلى مستقرها واستقر ولده السلطان الملك الأشرف بالمملكة يجمع المعامل والبلاد، ولم ير في الملوك أكثر سعادة منه ولا أعلى همة، ولا أكرم نفسا، ولا أكثر وفاء لمن خدمه ولا ذبه.

وفي أيام الملك المنصور فتحت طرابلس الشام يوم الثلاثاء تاسع ربيع

الأخر سنة ثمان وثمانين وستمائة، وكان نازها بنفسه وعساكره، وفتحها قهرا بالسيف، واستولى القتل والأسر والنهب على أهلها، وملك ماجاورها من قلعة جبيل والبترون وغير ذلك.

ثم إن الملك الأشرف المذكور بعد استقلاله بالملك بمدة يسيرة خرج بنفسه، وجمع عساكره وتوجه إلى عكا فنازلها في يوم الخميس ثالث ربيع الآخر، وكان خروجه من مصر في يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول واجتمع على عكا جميع الناس الجند والمتطوعة وغيرهم من سائر البلاد، ويسر الله فتحها في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة في مثل الساعة من اليوم من الشهر الذي أخذت فيه من المسلمين إلا أن الشهر كان الأولى، وأخذت من المسلمين في أيام صلاح الدين يوسف ابن أيوب في الآخرة سنة ثمان وخمسين، وإن السلطان الملك الأشرف صلاح الدين أخرج أهلها منها وقتلهم جميعا بالسيف، وكذلك عمل الفرنج بالذي كان فيها من المسلمين لما ملكوها في أيام صلاح الدين، فانظروا إلى هذا الاتفاق العجيب في أمور كثيرة، كما أخذت من صلاح الدين ملكها صلاح الدين، وقتل المسلمون بها ثم قتل الكافرون بها، وأخذت من المسلمين ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، ثم ملكها المسلمون ثاني ساعة من يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى فسبحان مقدر الأمور، ثم أخوت عزائم الفرنج بأخذ عكا، فهرب من كان ببيروت وعثليت وهما حصنان عظيمان لا تطرق الأوهام إليهما، وملكها المسلمون بحول الله وقوته من غير منازع، وملكوا أيضا بيروت وحيفا، فلم يبق للفرنج من الساحل قلعة ولا بلد ولا قرية ولا جزيرة إلا وملك المسلمون ذلك جميعه.

وتوفي المعظم توران شاه يوم الاثنين السابع والعشرين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة والله تعالى أعلم.